العلاقة بين الإنسان والأرض
فى التفسير والتعليل الجغرافى عند علماء المسلمين

للدكتور
عبد العليم عبد الرحمن خضر
أستاذ مساعد فى قسم الجغرافيا
كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

مقدمـــة

ما أن بزغ فجر الإسلام وغمر الجزيرة العربية بنور الهدى حتى تحولت تلك البقاع المباركة إلى وطن من الأبطال والدعاة لنشر دين الله الحنيف، ولم يمض أكثر من ثمانين عاما بعد وفاة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم حتى كان الإسلام يضئ ربوع دولة الإسلام الجديدة من حدود فرنسا حتى مشارف الصين. وباتساع دولة الإسلام اتسعت فرص تفوق المسلمين على غيرهم، مما فتح الطريق أمام ظهور لفيف من العلماء الذين صبغوا معارفهم على الأرض وحياة الشعوب بصبغة تتفق مع روح الإسلام. فالتعرف على «المكان» والنظر فى مظاهره والبحث عن مكوناته والربط بين عوامل نجاح الانسان فى استغلاله كانت كلها طريق بحثهم العلمى الجغرافى مستفيدين فى ذلك من بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى ...

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »(سورة البقرة/١٧٠)

ومن هذه الآية الكريمة أسس علماء المسلمين مبدأ الأبتعاد عن التقليد وطرح الآراء السابقة عن الانسان والأرض جانبا ليتحرر فكرهم من قيوده، ويكون أكثر استعدادا للبحث الموضوعى خصوصا وقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين ألغوا أشخاصهم وعقولهم فعبدوا الاحبار والرهبان من ذلك قوله تعالى:

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ »(التوبة / ٣١)

وقد اعتمد النابهون من علماء المسلمين فى المجال الجغرافى على التجربة الشخصية التى اكتسبوها من خلال أسفارهم البعيدة المدى فى البحار والفيافى والقفار، عاملين بقوله سبحانه وتعالى

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ »(العنكبوت/٢٠)

وقوله تعالى «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا »(الحج/٤٦).

وكان علماء المسلمين من رجاحة العقل ورحابة الفكر بحيث طوروا ما أخذوه من مفاهيم جغرافية عن الآخرين بما يتفق مع المنطق السليم، ولا يتنافى مع جوهر الإسلام حتى صاروا ـ آنذاك ـ ورثة العلم القديم الذى كان على وشك الاندثار بسبب عقم نظرة الكنيسة إلى علوم الكون، بينما كان الاسلام يدعو إلى التبصر فى آيات الله فى الافاق وما أودع الله فيها من دلائل عظمته وانفراده بالملك والقدرة. كما دعا إلى إيقاظ الحواس والعقول وعيرً من يعطلها ، فقد قال سبحانه وتعالى:

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»(الاعراف١٧٩)

فلم يكن غريبا بعد هذا أن يهتم علماء المسلمين بالجغرافية وهى التى تدرس الأرض والانسان ، وإن لم يستخدم هؤلاء العلماء لفظ «جغرافية» للدلالة على العلم الذى يدرس الأرض والانسان إلا فى القرن الرابع الهجرى...

وقد عرف علماء المسلمين تطبيق الاستدلالين القياسى والاستقرائى فى مناهج بحوثهم الجغرافية، فقد لاحظوا من قراءتهم للقرآن الكريم أن الخطاب فيه موجه أساسا إلى العقول السليمة بأوضح استدلال وأيسره، وإلى القلوب الصافية بأبلغ بيان وأوجزه، ولا يعلو عليه فى هذا شئ مما كتب الفلاسفة والمفكرون على اختلاف بيئاتهم وأزمانهم، بدليل ما أحدثه من الأثر الفكرى الهائل فى حياة البشرية منذ نزول الوحى حتى اليوم، فمن الآيات التى رسمت منهجية الاستقراء والنظرة العلمية الفاحصة للجغرافيين المسلمين قوله تعالى...

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ »(سورة فصلت/٥٣).

وقد ظهرت البدايات الأولى للجغرافية الوصفية إبّان القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) على أيدى اللغويين وإن نافسهم فى هذا المجال بعض المؤرخين من أمثال أبوهشام الكلبى (ت ٢٠٤هـ ، ٨١١م) وابن قتيبة (٢٧٦هـ، ٨٨٩م). والرازى الذى وضع قواعد على التاريخ والجغرافية معا... غير أن أهتام الجغرافيين المسلمين فى أول الأمر كان منصبا علسى المجالين الفلكى والرياضى لميادينه البحث الجغرافى:فقد كان هذا شأن المدرسة القديمة التى ترجموا منها الكثير فى أول الأمر، وسرعان ما اتضحت ملامح ميادين البحث الجغرافى لدى المسلمين حتى أضحت لهم فى نهاية الامر مدرسة إسلامية خالصة برز فيها الكندى والخوارزمى ، وعلى يد المقدسى، والبيرونى رسخت ملامح البحث الجغرافى فى الجغرافية الطبيعية.

وظهرت مؤلفات جغرافية أصيلة فى مجال الجغرافيا البشرية والاقليمية والاقتصادية بعد أن تطورت ميادين العلوم الاسلامية وتقدمت، وظهر مجددون فى أساليب البحث الجغرافى مثل الاصطخرى فى كتابه : «المسالك والممالك» وابن حوقل فى كتابه «صورة الأرض».

بل اننا نجد عالما عبقريا مثل «المقدسى» يضع أسس التعليل الجغرافى فى إيجاد العلاقة بين الاحوال المناخية والظروف الطبيعية وأنماط الاستيطان البشرى وبين قواعد التقسيم الاقليمى للوحدات الجغرافية.

كما وضع الاصطخرى أيضا مبدأ التعليل الجغرافى لتقسيم بلاد فارس على أسس جغرافية مناخية. وكان علماء المسلمين يدرسون الجغرافية الاقليمية بعنصريها: (الانسان والارض)... فكانوا يدرسون السكان على أساس لباسهم وطعامهم ومعتقداتهم الدينية ونظمهم الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادى فى الانتاج والتجارة وكانوا يأخذون بمبدأ التفسير والتعليل فى توضيح أثر الانسان فى الانتاج غير غافلين للعلاقة بين ذلك وبين الهيئة الطبيعية Physical Landscape والظروف المناخية Climatic Conditions وقد جسم علماء المسلمين كل ذلك فى مصورات ورسوم غاية فى الدقة والوضوح، واستعانوا في دراستهم بالأجهزة والمراصد وأدوات القياس والإحصاء.

وفى هذا البحث أحاول تسليط الضوء على جانب من جوانب المنهجية العلمية فى المجال الجغرافى عند علماء المسلمين ، ذلك الجانب هو الأخذ بمبدأ التفسير والتعليل الجغرافى للظواهر المكانية والبشرية والربط بينهـا فى دراسة الاقاليم واقتصادياتها. وفي بحثى هذا أحاول أن أثبت علميا أن علماء المسلمين لم يقتصروا على الوصف المجرد فى الدراسات الجغرافية وإنما أخذوا بالتعليل والتفسير الجغرافى للظاهـرات المختلفـة سواء كانت تلك التى شاهدوها شخصياً أو التى نقلوا وصفها عن غيرهم.

وقد قدمت لذلك بلمحة عن الإنسان والأرض في المراحل البدائية الاولى وعرضت على ملامح الفكر الجغرافي فيما قبل الإسلام، ثم تناولت أسس الجغرافية البشرية عند المسلمين. وشرحت بعد ذلك مفهوم التفسير والتعليل الجغرافي عند علماء المسلمين. ومن هذا المنطلق كان حديثى عن الانسان واستخدام الارض في التراث الجغرافي عند المسلمين وكان لابد ـ والحالة هذه ـ أن أختم البحث بابراز فضل العلماء المسلمين وأثرهم فى إثراء الفكر الجغرافى العالمي الحديث فى مجال الجغرافية البشرية؛ فقد كانوا الرواد الأوائل الذين وضعوا المنهج العلمي السليم.. وأرسوا اللبنات الأولى فى صرح الفكر الجغرافى فظل يعلو حتى وصل إلى ما هو عليه الآن..

العلاقات بين الانسان والارض في المراحل البدائية الأولى

على الرغم من أن المعرفة الجغرافية ذات أصول عريقة تعود إلى أقدم أيام حضارات الانسان، ومن أن عمر «الجغرافيا» كموضوع مميز الشخصية يزيد على الألفي سنة... إلا أن بعض الجغرافيين يرون أن الفكر الجغرافى الحديث هو وليد جهود العلماء خلال المائة سنة الاخيرة، أو مايزيد بقليل[1]...

* فهل جاء الفكر الجغرافى الحديث كما يقول «تايلور» وليد المائة سنة الاخيرة فقط؟ هل جاء هكذا فجأة من فراغ؟ ... بالطبع لا ...

إن واقع الأمور والحقيقة يؤكدان أن وصول الفكر الجغرافى الحديث إلى ماهو عليه اليوم من أسس ومنهجية إنما جاء مستندا إلى جذور أصيلة تضرب فى عمق الزمن إلى ماقبل التاريخ، هذا من جهة ... ومن جهة أخرى كانت الارضية الراسخة التى بنى عليها جغرافيو القرن الماضى هى تراث الفكر الجغرافى عند المسلمين ...

ومما لا شك فيه أن الفكرة الاساسية التى دار حولها البحث الجغرافي منذ أقدم أيام نشأته عند البدائيين كانت سطح الأرض باعتباره مكان وجود (الانسان) ومسرح نشاطه الاقتصادى ودوره في تغيير ملامح الجيومورفولوجيا الحضارية على الأرض، سواء كان ذلك بالعلاقة إلى الكيان الكلي للكون أو بعلاقة بعضه ببعض، وظلت هذه الفكرة محور الدراسة عبر العصور والأزمنة حتى يومنا هذا.

وبهذا المفهوم نعبر المقدمات فيمكننا القول إن الإنسان البدائى كانت لديه فلسفة لها خصائصها الخاصة المميزة، والتى تتمثل في المحل الأول فى اعتمادها على الأساطير بحيث يمكن وصفها بوجه عام بأنها فلسفة «فوق طبيعية»[٢]، وأن كان هذا لا يعنى أبدا ان الانسان البدائى لم يكن فى علاقته بالارض غير مهتم بالأمور الواقعية أو الطبيعية التى تصادفه في حياته اليومية.

وكان الانسان البدائى يعيش فى كنف الأرض التى يحيا فوقها وما يرتبط بها من ظواهر طبيعية ومن الطبيعى أن نجد دوره فى تغييرها ضئيلاً... فقد كان لا يملك إلا أن يستعير منها كل مقومات حضارته، فكان يستخدم الأرض وعناصرها المختلفة بشكلها الذى وجدها عليه وهو بدائى ... وحين كان يرتقى خطوة في سلم الحضارة كان يحور فيها ويهذبها[٣]... فكل شئ اذن يدخل في تكوين الحضارة البشرية يمت إلى «الأرض»... بسبب، وكذلك يمكن القول: إن كل الظروف الجغرافية التى ساهمت فى تشكيل الأنماط الحضارية للأرض كانت الظروف الانسانية مشاركة فيها... فيد الانسان منذ عصور ما قبل التاريخ تعيد تشكيل وجه الأرض[٤]...

ويبدو أن تأثير الانسان في الارض وما يحيط بها كانت عملية أقدم مما كنا نظن. فقد رسم الإنسان بأبسط أنواع النشاط ملامح البيئة بالجمع والالتقاط والقنص مفضلا بعضه على بعض من الثمار والبذور وبيض الطيور والجذور، عن قصد أو بلا قصد، وازدادت، علاقة الإنسان «بالارض قوة مع ظهور الزراعة. وفي بعض الاحوال وبخاصة في مناطق البحر المتوسط حيث يوافق المناخ عصرا جيولوجيا حديثا ـ كان التكافل بين القبيلة وغيرها من القبائل الأخرى المجاورة قائما على أساس تبادل المصالح في استغلال الارض. ونجده فى مناطق أخرى قد فتح مساحات مكشوفة فى عمق الغطاءات الخضراء الكثيفة وزرعها بما يحقق له المنفعة القصوى من الأرض . كما نجده قد سوى سفوح الجبال في شكل مدرجات صالحة للاستغلال وجلب الماء إلى بعض المناطق الصحراوية ... وفي كل جولة وجدناه يختبر أنماطا جديدة من الزراعة وتربية الحيوان... وكانت بصماته ناطقة بمقدار ما قام به في تغيير صورة الأرض منذ أقدم حقب الوجود البشرى على الأرض، فالفسيفساء المزهرة في المروج، والغابات والمراعي الجبلية التى نشهدها فى جبال أوربا والمصاطب، وحقول الأرز التى تمتد على مدى البصر في «جاوة» ونيبال «والأحراج النورماندية» وتناوب المنحدرات متعددة الألوان ، والسطوح المغطاة بالخضرة وأشجار الزيتون على سواحل البحر المتوسط وجزره وهضاب «الانديز» بسطوحها البارزة، وغزارة أشجار جوز الهند في جزر المحيط الهادى كل هذه الصور الحيوية إنما هي وليدة العلاقة بين الانسان والارض من أقدم العصور...

وكان الانسان البدائى يشعر أن ثمة قوى خفية تحول بينه وبين استخدام الأرض... ولذلك نجده قد وضع تفسيرات خاصة لظواهر الكون والطبيعة من حوله ... وفى الغالب كانت تلك التفسيرات الفوق طبيعية ترد سقوط المطر أو انقطاعه الى وجود كائنات روحية تسيطر على ماء السماء وتتحكم فيه غير أن الدراسات الحقلية القليلة التى عالجت هذا الموضوع مثل كتابات البروفيسور «ايفانز بريتشارد» E.E. Evans - Pritchard وجود فرى ليهارت[٥] Godfrey Lie hardt لم تعرض هذه التصورات والافكار التى كانت تنظم العلاقة بين الانسان والارض في الحقب البدائية الا بطريقة عرضية أو كجزء من دراسة الديانات ، القديمة ككل ، دون أن تعطى لهذه المعطيات ذاتها العناية الكافية

التى تكفل الحصول على معلومات تفصيلية دقيقة.. غير أن «فريزر» استطاع أن يسجل عددا كبيرا من العادات والتصورات والتقاليد التى تبين الرابطة القوية ـ في اعتقاد البدائيين ـ بين حياة الانسان والأرض... وكيف يمكن أن يكون هلاك الانسان منهم بهلاك نبات تخرجه الارض... ولعل هذا يفسر لنا لماذا يحجم «الهيداتو» من هنود أمريكا الشمالية الحمر عن قطع الاشجار الضخمة خشية هلاكهم بسبب قطع الأشجار وايذاء (الأرض)... ولذلك لا يسدون حاجاتهم من الاخشاب إلا بما يسقط من تلقاء نفسه من هذه الاشجار...

ويهمنا هنا أن نؤكد أنه حيثما كان يوجد «الانسان» فوق «أرض» لها موارد طبيعية كانت توجد أيضا «أفكار ومثل» تتدخل باستمرار بين استغلال الانسان للموارد الطبيعية وكثيرا ما كانت المثل والأفكار تتجرد عن «القيم النفعية» للارض عند الانسان البدائى كما كانت القيود الاجتماعية تختلط بالقيود الدينية بصورة كانت تحدد له أنماط استغلال الأرض... ، ويرى «بوجلييه»[٦] أن أصل الزراعة واستئناس الحيوان ونشأتهما مرتبطان ارتباطا وثيقا بالديانات الأرضية القديمة والسحر.. بل هو يرى فى الطقوس حافزا للانسان البدائى على السعى في (الأرض) لاستغلال مواردها وتسخير الحيوان في سبيل تحقيق تلك الغاية. ويرى «رايتاخ» أن الطقوس كان لها دور هام عند الانسان البدائى في الانتفاع بعطاء الأرض والطبيعة من حوله ذاتها كانت ذات طبيعة نفعية ونتيجة لعبقرية الانسان الصانعة[٧]...

وكان الانسان البدائى عنصرا متفوقا من العناصر التى كانت تتفاعل على (الارض) من كائنات حية «حيوانات ونباتات» وظروف مناخية وجوية. فقد كان للقبائل الزنجية البدائية في افريقيا دور في تغيير «التوازن البيئى» في المحيط النباتى... بقطع الكثير من أصناف الاشجار فى الغابات الاستوائية والقيام (بتنظيف الارض) من أى صورة للحياة...[٨] وكانت تلك القبائل تعيش فى البقعة التى تم (تنظيفها) لمدة عام أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير... ثم تغادرها .. وما أن تغادرها حتى تبدأ الأشجار في النمو مرة أخرى .. ولكنها لا تعود سيرتها الأولى فى النمو مطلقا ... لماذا؟ ..

لان الانسان ـ آنذاك ـ كما هو الآن أفسد التوازن في علاقته بالأرض .. وأفسد التوازن، بين الانواع النباتية الى تحتاج إلى الظل، والانواع التى ترغب في الضـوء... وبذلك نمت غابات ثانوية محل الغابات البدائية الأولى..

وما ذلك الا سلسلة في حلقات طويلة تترجم العلاقة بين الانسان والارض من فجر التاريخ البشرى... وهي سلسلة من التدهور الشجرى الذى أصبح يسير في قانون ثابت لا يتغير..

وفي الاتجاه المضاد أشار فونتسكيه «إلى (التربة) و (المناخ).. كقوتين كانتا تقفان أمام الانسان فى مجال (الاستخدام الارضى) دون أن يدرسـهما أو يشرح آثـارهما في تفصيل أو يدرسهما دراسة تفصيلية تنفصل إحداهما عن الأخرى... بل أجملهما معـا وتحدث عن أثرهما باجمال ايضا...(٩) فالارض في نظره تتصف باحدى الصفتين:الخصب أو الفحولة. وعليهما تتوقف العلاقة بين الانسان والارض.. وبذلك فهو لا يزيد كثيرا على «بدوان» في الاشارة الى آثر الارض فى نشاط الانسان.. ولم يشر مثلا إلى العلاقة بين «جدب الأرض» وبين شحذ أذهان السـكان، اتزانهم ، تجمعهـم فى مراكز استيطـانية، تفكيرهم فى التغلب على مشكلات البيئة... ونحن لاننكر دور العوامـل الجغـرافية في تشكيل النمط الاقتصادى للانسان الذى يمكن فى حدوده استغلال الارض... فنحن لا ننسى آثر الظواهر الجغرافية المناخية والارتفاع عن مستوى البحر ، والاشعاع، والرياح السائدة، والبعد عن خط الاستواء في صياغة النمط الحضارى للانسان .. منذ فجر وجوده على الأرض....

الفكر الجغرافي قبل الاسلام ومدى معالجته للعلاقة بين الانسان والأرض

حينما كان الترحال والانتقال ـ فى الأزمنة البدائية ـ أمرا صعبا، كان جمع المعلومات والقصص التى تتعلق بحياة الشعوب والمخلوقات في أجزاء الأرض المختلفة يتم بصورة مشوشة وغير واضحة.. وان كان ذلك لا يقلل من كون التفكير الجغـرافى قديم قدم

الانسانية ذاتها.... إذ أن نظرة الانسان الأول نحو ظاهرات البيئة المحيطة به وموقفه منها يعتبر المنشأ الاول للجغرافيا.[١٠]

ومما يجدر ذكره هنا أن الرجل البدائى كان يرغب دائما في تفسير الاشياء حتى ولو فى صورة خاطئة ومستحيلة، وكان دائم الرغبة في التعرف على طبيعة الأشياء وأصولها ، فهذه رغبة أصيلة في الانسان من حيث هو إنسان... وهي التى تثير فيه حب التساؤل أو حب الاستطلاع الذى يعتبر - فيما يتعلق بالفكر البدائى - كما يقول «ستراكان» Strachan ما يسمى - «بالميتافيزيقا البدائية» وتفسير الظواهر الطبيعية التى تؤثر في نشاط الانسان الاول تفسيرا أسطوريا..[١١].

ويعتبر (التفسير والتعليل الجغرافى) من هذه الناحية من المبادئ الأساسية للفكر الانسانى ، وقد حاول الانسان البدائى دائما أن يبحث عن أصل الظواهر التى تحيط به و(علة) وجودها و(كيفية) نشأتها، أى أنه كان يرغب دائما في التعرف على طبيعةالاشياء وأصولها... (ومدى) تأثير ذلك فى علاقته بالأرض وهي سبيله الوحيد للمسكن .. والملبس (أن وجد) والغذاء... ومع التسليم مقدما بأن، (الانسان) البدائى كان يقف في كثير من الأحيان عاجزا أمام الظواهر الجغرافية الطبيعية ، وبأنه كان يجهل تماما (القوانين التى تحكمها) - فإن ذلك يرجع فى المقام الأول إلى عدم وجود (المعرفة العلمية الدقيقة) عنده ، والتى لم تتوفر بطبيعة الحال - إلا في مرحلة حضارية متقدمة جدا في حياة المجتمع البشرى ككل، كما أن ذلك لم يمنعه - على أية حال - من أن يجد جوابا لكل سؤال من الأسئلة الكثيرة التى كانت تغزو فكره، والتى أصبحت فيما بعد موضع تساؤل (العلم)....

فاذا كان الانسان (البدائى) يفتقر إلى المعلومات الصحيحة، فقد كان له من (الخيال) ما كان كافيا لتزويده (بتفسير) و (تعليل) لظواهر الطبيعة، وخلق الكون، ونشوء الانسان وظهوره، ومن هنا جاءت عبارة «جيفونز - F.B. Jevons الشهيرة عن أن (العلم الحديث قد تطور ونما من أخطاء الرجل الهمجي السادج)[١٢]..

ودخل الانسان (مرحلة) ما يسمى بالتحضر البشرى، وبدأت المفاهيم الجغرافية لديه

تتبلور في قوالب جديدة ليس للأسطورة والخيال الا دور ثانوى فيها.. ولو سلمنا ـ مبدئيا ـ بأن الجغرافيا هي العلم الذى يتناول دراسة سطح الأرض، باعتبـاره مسرح حياة الانسان وذلك عن طريق وصف (الظاهرات) المختلفة التى تتوزع فوقـه، وتـوضيح (العلاقة) المرتبطة بهذا التوزيع، لوجدنا بأن المعلومات (الوصفية) للأرض والانسـان كانت تتداولها الألسن وتعكسها (كتابات) الفلاسفة وأصحاب الفكر الآخرين، منذ أقدم أيام الحضارات الأولى حيث كان الاهتمام ينصب على معرفة شكل الأرض والعلاقة بينها وبين الكون من ناحية، وبينها وبين المكان الذى كان توجد فيه تلك الحضارات من ناحية أخرى باعتبار أن ذلك المكان كان يشكل بؤرة الاهتمام بالنسبة لهم...

ولاشك أن توصل (الانسان) إلى الكتابة كان ثورة عظيمة في (نمط تخزين) معلوماته عن الارض والظواهر الجغرافية التى تحيط به... فقد تأتت لديه نقطة البداية الحقيقية لكي يسجل فكره وتصوراته، وكان من الطبيعى أن يهتم (التسجيل) بالحكاية والقصة، وكان أيضا من الطبيعى أن يتسلل إلى هذا التسجيل بعض الحقائق التى تصور الواقع ال؟ى عاشت فيه حياة الانسان على الارض... ومما سبق ذكره عن (المرحلة البدائية في الفكر الجغرافى) نتبين كيف أن الفكر الجغرافي (المكتوب) لم يبدأ من فراغ لدى اختراع الكتابة والتسجيل منذ بضعة آلاف من السنين الأخيرة من عمر الحياة قبل الميلاد...[١٣].

فقد حاول (المصريون) القدماء فى عصور ما قبل التاريخ تحديد الأمـاكن على سطح الارض بالنسبة لحركة الشمس والنجوم...[١٤] وذلك بالاضافة إلى أن (المصريين) اعتقدوا أن العالم على شكل مستطيل وأن (مصر) تحتل الاراضى الضحلة التى يجرى فيها نهر النيل وسط هذا الشكل المنتظم...[١٥].

ولأن (مصر) تعتبر أقدم بلد متحضر، فقد ورثنا عنها المعلومات الجغرافية المكتوبة، والتى برز فيها بالفعل (التفسير والتعليل الجغرافي) لجميع الظواهر الطبيعية والبشرية بشكل واضح سهل الفهم، ووصلت الينا مادة «اركيولوجية» ـ عن (مصر) أكثر مما هو عن أى بلد آخر فى العالم... ولذلك اتسعت آفاق الدراسة (لمصر) القديمة حتى لقد ظهر اصطلاح علمي لهذا النوع من الدراسة، وهو «علم المصريات» (Egyptology)[١٦].

فشخصية مصر منذ القدم لا شك أنها كانت حالة (نادرة) من الاقاليم والبلاد... فهى تجمع كثيرا من المميزات الجغرافية ممثلة في (الانسان والارض) بصورة تجعل منها شخصية حضارية فذة...

وتشير المخطوطات البردية المصرية القديمة منذ عصر الأسرات إلى أن المصريين القدماء كانوا على معرفة واسعة بالأرض والانسان في الدول التى كانت تحيط بهم فى شمال افريقية والساحل الفينيقى وغرب آسيا... وكانت علاقتهم ببلاد بونت «Punt» ـ وكانت تقع مكان الصومال حاليا وليدة تطبيق الفكر الجغرافى الذى أختمر فى مخطوطاتهم عند الكهنة «وهم حراس العلم وحماته».. وتجسمت رحلاتهم الكشفية في عقد اتفاقيات تجارية للحصول على الاخشاب من عهد «خوفو» (٣٠٠٠ ق . م) «وحتشبسوت» (١٥٠٠ ق.م)... وحين أحتل (الفراعنة) (بلاد كوش) رسم العلماء المصريون خرائط سليمة لهذه البلاد وسجلوا احصاءات دقيقة عن عطاء (الارض) هناك وتعداد (السكان) الذين كان يمكن استخدامهم فى المشروعات الزراعية والعمرانية التى ازدهرت في (مصر) وملحقاتها في (كوش) منذ حكم الأسرة الثالثة...[١٧].

وفي بلاد (يام Yam) تركزت العلاقة بين الانسان المصرى الذى وصل الى هناك وبين الأرض فى استغلال العاج والصمغ والرقيق...[١٨].

وتشير الأدلة إلى العلاقة بين الانسان المصرى وموارد سواحل «فينقيا» ـ (الشام حاليا ـ ممثلة فيما عثر عليه المنقبون من فؤوس مصرية وآلات حرب مصرية فى كثير من المناطق السورية واللبنانية والفلسطينية، والتى يرجع تاريخها إلى ماقبل عصر الأسرات...[١٩] وبالاضافة إلى أهتمام المصريين القدماء بالكشوف الجغرافية فى الساحل الفينيقى واليونان وبلاد (بنت) ويام، فقد تمثلت نظرتهم التطبيقية للعلاقة بين (الأنسان والأرض) في استغلال الثروة المعدنية بجزيرة سيناء والنوبة وارتبطت تلك الابحاث الجغرافية التطبيقية برسم الخرائط الدقيقة جدا لمواقع المناجم والمسالك الجغرافية التى تؤدى اليها.. ورغم أن الخرائط المصرية القديمة كانت ترسم على ورق البردى الذى تعرض

معظمه للتلف لتطاول الزمن عليه، فقد عثر على خريطة مصرية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر (ق. م) وما زالت محفوظة فى متحف (تورينو) بايطاليا حتى يومنا هذا تحكي تطور الفكر الجغرافي عند (المصريين) لدرجة المرحلة التطبيقية العملية وهو أمر مذهل حقا...[٢٠].

ورغم ذلك فقد غلفت النظريات الأسطورية الجوانب الفلكية للفكر الجغرافي عند المصريين القدماء وذلك فيما يختص بخلق الكون، وشكل كل من السماء والأرض، وطبيعة حركة الشمس تم مدى معرفتهم بالنجوم والكواكب ، وقد صور قدماء المصريين تلك الصورة الاسطورية بشكل يبين طريقة فصل السماء عن الأرض.

وقد عاصرت الحضارة (البابلية) في القديم حضارة مصر الفرعونية... ويعتبر كثير من العلماء أن البابليين (من) أوائل الجماعات التى قامت برسم خرائط تفصيلية Cadastral» لسهل العراق وذلك فى غضون الألف الرابعة ق.م... والبابليون ـ بحكم طبيعة (الأرض) المنبسطة والمترامية الاطراف التى كانت تحيط بمدينتهم (بابل) ـ كانوا قد تصوروا شكل (الارض) بأنها عبارة عن سطح منبسط تتوسطه مدينة (بابل) وتعلوه قبة السماء المدورة...[٢١] وقد أحاطوا (الأرض) ببحار لا نهاية لها، ويحتفظ المتحف البريطانى بلندن بخريطة بابلية محفورة على لوح من الطين وتمثل العالم المعروف لدى البابليين ... وتمثل الفكر الجغرافي عند البابليين علاوة على ذلك في تجسيد العلاقة بين الانسان والارض فى استخدام المشاهدة والقياس ووضع حدود الملكيات الزراعية، وتحديد أنماط استخدام (الارض) وتخطيط المدن كما توصل البابليون القدماء إلى (تمثيل ظاهرات سطح الأرض الطبوغرافية) على ألواح مستوية من الطين اشتملت على رموز للجبال على هيئة أقواس متداخلة، وأخرى للمدن على هيئة دوائر... كما حاول البابليون القدماء (تفسير) تعاقب الفصول على مدار السنة فانكبوا على دراسة خرائطهم الفلكية، ولكنهم لم يتمكنوا من التوصل الى أى برهان أو حتى قرينه تثبت لهم أن حركة النجوم ظاهرية مرجعها إلى دورة الأرض.. ولذلك جاء (تفسيرهم) على هيئة خيالية في تصوير ذلك...[٢٢].

وقد شهد الفكر الجغرافى عند «اليونايين» القدامي، نمطا آخر من الابتكار والجدة حيث جاء (تفسير) الباطن الخفي للطبيعة في شكل سلسلة من الأفكار والنتائج متصلة الحلقات بحضارتهم القديمة ونظرتها الشاملة، وقد تنازعت الجغرافي اليوناني القديم صورتان أولاهما علمية عقلية، وثانيتهما صوفية عرفانية، سارتا بخطين متوازيين على ما بينهما من تنافر وتباين وفي الصورتين بررت ظلال عميقة الايحاء تمثل جانبا من نظرة الانسان نحو الارض والكون ونحو ذاته وعلاقتها بالحياة...

وقد أدت فكرة كروية الارض بالمفاهيم الجغرافية عند اليونانيين القدامي إلى تقسيمها إلى عدد من خطوط العرض أو (كلياتا Klimata) وعلى أساسها ميز الفيلسوف بارامانيدس «Paramanides» بين أقاليم (الارض) على أساس خمس نطاقات ... نطاق حار فى الوسط، ونطاقان متجمدان، وبينهما نطاقان معتدلان، واعتبر النطاق المعتدل الشمالي الذى توجد فيه «أثينا» هو النطاق المميز من (الارض) لأنه يساعد على الاستيطان والاستغلال الاقتصادى، لاعتدال مناخه، وهذا هو (تفسير) نظرتهم اليه على أنه (العالم المأهول) «Ecumene» أما بقية النطاقات الاخرى فقد وضعوا لها ملامح وأوصاف ومظاهر جغرافية، على أساس فكرة (التناظر Symmetry)... ورغم ما سببته فكرة (التناظر) من بعض الأخطاء العلمية فى توزيع الظاهرات على سطح الأرض... فأنها كانت أساسا لا بأس به (لتفسير) مبدأ تقسيم سطح الأرض إلى أقاليم لكل منها خصائص ومميزات تنفرد بها...[٢٣].

غير أن وصف (الارض) في أقاليمها المختلفة وإيجاد العلاقة بين (الانسان) والنشاط القائم بكل منها لم يصل في السعة والتفصيل كما وصل إليه أيام (الرومان)...[٢٤] ولكن المرء لا يملك الا تقدير الأعمال اليونانية التى تمثلها أعمال (هومر): «الإلياذة والأودسة التى تحدث فيها عن الانسان وعلاقته بالطبيعة حديثا لا يخلو من الطرافة والوصف والتحدى . وقد ساهم «هزيود» كذلك (القرن الثامن ق . م) فى نزعة البحث عن (تفسير) مقبول عن الاشياء الحقيقية في الكون... ومما يلحظه الباحث في دراسته عن العلاقة بين الانسان والارض قبل (سقراط) ندرة المصادر وشحها ... ولكن المحصلة

النهائية للدراسات الكشفية الجغرافية فى العصر اليونانى تعطى الانطباع أن العالم الموروث عن الحضارة الفينيقية قد اخذ في الاتساع التدريجى نحو الشرق إلى شبه القارة الهندية ونحو الشمال الغربى إلى «الجزر البريطانية» والبحر البلطي، وذلك على الرغم من أن حوض البحر المتوسط ولا سيما الحوض الشرقي قد ظل ـ كما هو الحال في العصور القديمة ـ مركز العالم المعروف آنذاك بعنصريه الأساسيين: الانسان والارض[٢٥]... وخلاصة القول في الفكر الجغرافي عند اليونانيين القدماء أن أحدهم وهو (ايراتوستينس) «Eratosthenes» تمكن من وضع كتاب في الجغرافية الوصفية سماه: (الجغرافيا: Geography) وهو تعبير يتكون من كلمتين يونانيتين (Geo) ومعناها: الأرض، وGraphia وتعنى : أنا أكتب ... وبذلك يصبح المفهوم الكامل للجغرافيا عند ايراتوستين هو الكتابة عن ، أو وصف ، الأرض ... وهذه هى المرة الأولى عند الانسان على حد معرفتى ـ التى يتوصل فيها إلى اصطلاح (جغرافيا) واستخدامه للدلالة عن وصف الظاهرات الأرضية..[٢٦] وجاء بطليموس Ptolemaeus ليحدد مفهوم الجغرافيا وأهدافها بدقة كبيرة حيث جعله يدور حول الموقع والترابط المتبادل بين مختلف الاماكن علي سطح الأرض ، على أساس أنها جميعا أجزاء من كل أو كما قال (سترابو) بأن فكرة المكان تكونها المزايا الطبيعية التى يمتلكها ذلك المكان ضمن إطار العلاقة بالأماكن الاخرى على سطح الأرض[٢٧]...

وكان الفكر الجغرافى العربى قبل الاسلام ترجمة صادقة لما يحيط بجزيرة العرب من مظاهر جغرافية مختلفة، وجاءت المعرفة الجغرافية عند العرب معبرة عن طبيعة حياتهم القائمة على الترحال فى الصحارى المترامية الأطراف بقطعانهم من إبل وأغنام، بحثا عن العشب والكلأ متتبعين آبار الماء، فقد أكتسبوا خلال ذلك معلومات جيدة عن المسالك والدروب المختلفة وتحركات السحب وقد تابعوا تغيرات الطقس، وألموا بمناطق عيون الماء وبطون الأودية...[٢٨]، فبحكم الطبيعة الجافة لبيئتهم، وصفاء سمائها، وبحكم أمتهان السكان حرف التجارة والرعي المتنقل تولدت لدى العرب مفاهيم جغرافية وصفية وتعليلية عن طبيعة الأرض... ودور الانسان فى الاستفادة منها في الحرف الأساسية السائدة آنذاك: الرعى ـ التجارة ـ الزراعة... وبرزت أصالة تلك المفاهيم الجغرافية في

كتاباتهم عن النجوم ومنازلها وأبراجها.. (والربط) بين العوامل المختلفة التى تؤثر في الاحوال المناخية لبلادهم وتغير الفصول الأربعة ... وبذلك يمكن القول أنهم كانت لديهم معلومات جغرافية خاصة بهم حتى قبل نقل مصنفات الهند وفارس وأثينا في هذه العلوم إلى اللغة العربية.

* الجغرافية البشرية عند المسلمين:

برزت بواكير الصفة «الاستغلالية» للفكر الجغرافى عند المسلمين حينما ظهر اهتمامهم بالسكان ومواطنهم ككل، وبالعلاقات القائمة بينهم وبين الأماكن المختلفة وتنوعها على سطح الأرض......، وأصبح (مفهوم الجغرافية) لديهم يتضمن العلاقات بين الناس والبيئة الطبيعية من جهة، ومن جهة أخرى الدراسة الجغرافية للظاهرات المتعلقة بسطح الأرض ومدى ارتباطها مباشرة بالانسان ونشاطه الاقتصادى.

ولا شك أن الفضل فى إطلاق سراح الفكر الانسانى بصفة عامة وتحرير الفكر الجغرافى السليم من عقدة الخوف بصفة خاصة، إنما يرجع إلى الإسلام ، فقد رفع الإسلام الحظر المفروض على التفكير الحر البناء ... ودفع به نحو الابداع لمصلحة (الانسان) وتسهيل اساليب استغلاله (للارض) كما كان للاسلام الفضل الاول فى تربية وتأمين المفكرين المسلمين ، وصقل الصفوة الممتازة من رجال الفكر الجغرافى وحفزها على مواصلة المسيرة الفكرية ، وتسجيل الاضافات الجديدة فى المجال الجعرافي... ولا شك أن حث الإسلام للمسلمين على طلب العلم والمعرفة كان له اثره في جعل (المجال الجغرافى) بابا من أبواب الاجتهاد في توسيع دائرة معرفة (الانسان) بالارض والناس في المعمور من كل الأرض... ويشهد بذلك العالم الكبير «هـ . ج . ويلز (H.G. Weels) في موسوعته الكبيرة عن المعرفة الانسانية... فيقول: «لقد سبق العالم الاسلامي الغرب (بقرن) أو ما يقاربه. إذ قامت به في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة [على أنقاض ما كان في مبدأ الأمر] مدارس دينية تعتمد على المساجد، ثم تطورت لتأخذ شكل الجامعات العظيمة ، فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامى إلى مسافات

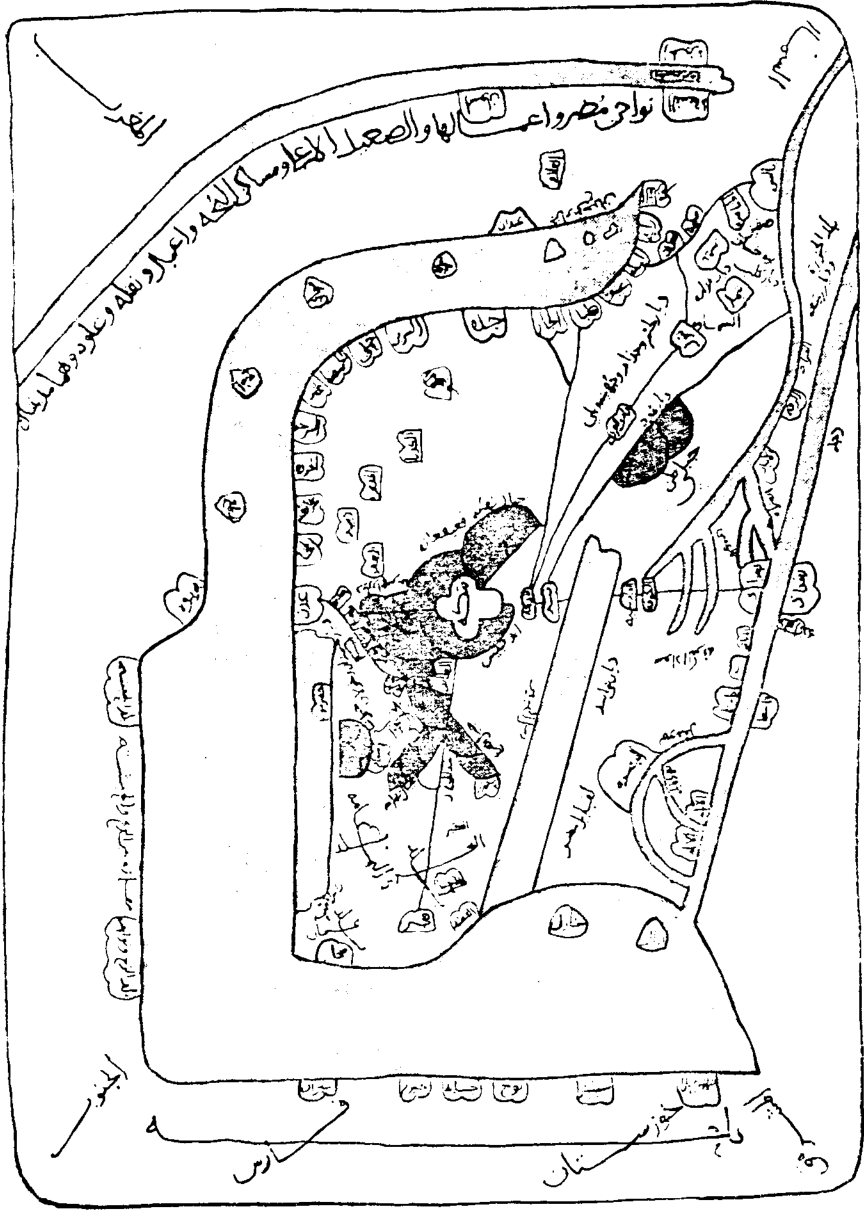
بعيدة واجتذب اليها الطلاب من الشرق والغرب»... ويقول أيضا: «لقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستانا من رجال ممتازين»[٢٩] ... وهذا بالفعل واقع الأمور، فقد ظل الفكر الجغرافى محظورا في أوربا زهاء ثمانية قرون من عمر الحياة. ومن ثم فقد كان حصاد الفكر الجغرافي الصحيح مهجورا، لأن الكنيسة كانت تطارده وترفضه[٣٠]... كما كان الفكر الجغرافي المسيحى السائد ساذجا ترفضه العقلية الاسلامية المتنورة...

ولا يمكن لإنسان ـ مهما كانت جنسيته ودينه ـ أن ينكر فضل الاسلام فى إثراء الفكر الجغرافى بصفة خاصة، وكل صنوف المعرفة بصفة عامة... ففى ظل الاسلام ارتبطت كثير من المفاهيم الجغرافية بتحديد أوقات الصلاة والصوم والاتجاهات (نحو القبلة)، ودخلت تلك المفاهيم حيز التطبيق العملي فى ابتكار وتحسين الوسائل والاجهزة اللازمة لذلك... وفي الوقت نفسه نجد الاسلام لم يستنكر الفكر الجغرافي العتيق المهجور وإنما سمح لصفوة العلماء المسلمين، باستيعابه والاضافة اليه. مما كان له أثره في توسيع دائرة المعرفة الجغرافية. وما كاد القرن الثالث الهجرى ينصرم حتى كان لدى المسلمين رصيد ضخم من الكتابات الجغرافيَة مثل كتابات «أبوسعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي»، وأبو حنيفة الدينورى، وسجلت بدايات القرن الرابع الهجرى إضافات هائلة على يد «ابن خرداذبة»، وقدامة بن جعفر».[٣١]

وأنعكس أثر الإسلام على مناهج الفكر الجغرافى الاسلامى، حينما كانت الشعوب الاسلامية تتلاقى فى (عرفات) من كل عام فى أعظم مؤتمر عام للمسلمين، كان يشهد تبادل المعرفة بصفة عامة والجغرافية بصفة خاصة. ذلك أن نظرة المسلم إلى المعرفة في شمولها نظرة فيها احترام عميق، فالعلم صفة من صفات الله، وهو أول ما أمر الله به رسوله فيما أوحى اليه «اقرأ باسم ربك الذى خلق» (العلق/١)... كما أن الاسلام عود علماء الجغرافيا المسلمين على عمق التفاعل مع (الارض) و (الناس) وتحقيق الأخبار. وتحمل بعضهم في هذا رهقا وعنفا ولكنهم كانوا يستمدون العون على هذا من الله سبحانه وتعالى في حب صادق للمعرفة ومنهجية في الوصول اليها...[٣٢]

وقد أدت حركة الفتوح الإسلامية وامتدادها ـ وما تطلبه ذلك من انشاء جهاز البريد

ومد شبكة الطرق والمواصلات واقامة المراصد والابراج - إلى ظهور كتب عديدة تعالج موضوع المسالك والممالك مثل كتب «ابن خرداذبة» - و«الاصطخرى» - و«ابن



خريطة للعالم الاسلامى وردت بكتاب «صورة الأرض» لابن حوقل

حوقل»...[٣٣] وقد حرص علماء المسلمين على تأكيد عمق العلاقة بين (الانسان والارض) في إطار عقيدة الاسلام ومنهجه العلمي وقد ورد «للمقدسي» أمثلة كثيرة فى ذلك منها
«... وما تم لى جمعه الا بعد جولاتى في البلدان ، ودخولي اقاليم الاسلام ، ولقائى العلماء، وخدمتى الملوك، ومجالستى القضاة، ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الأدباء والقراء، وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطين فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها، ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها»...[٣٤].

وانطلق الجغرافيون المسلمون في رحلاتهم العلمية بحثا عن (الاماكن) التى ورد ذكرها في القرآن (وحياة الانسان) فيها... نذكر من ذلك انطلاقة عبادة بن الصامت مع المجاهدين إلى بلاد الروم ، وزيارته (للرقيم) قرب.. القسطنطينية.. حيث يرقد فيه أصحاب الكهف، وذهب محمد بن موسى الفلكى بعد ذلك ليستقصى خبر أهل الكهف . وأرسل الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ ـ ٢٣٢ هـ = ٨٤٢م ـ ٨٤٧م) سلام الترجمان إلى الاصقاع الشمالية (أرمينيا وجورجيا ـ وبلاد الخزر وبحر قزوين) ليرى سد يأجوج ومأجوج.

وقد أمتلأت كتب التراث الجغرافى بالمعلومات التى تدرس (الانسان) واثره في الأرض، كمحور للدراسة الجغرافية البشرية، وقد رأينا أن كتابات «المقدسى» كانت تتسم بتغليب الطابع البشرى على العنصر الطبيعى في الجغرافية، كما نجده قد تناول ذكر الاقاليم الاسلامية من حيث اختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم (جغرافية لغوية)ونجده يحلل أنماط السلع التى شملها نشاطهم التجارى (جغرافية تجارية) ... وأهتم (المقدسي) كذلك بأثر الإنسان في استخدام الأرض وما تدره من منتجات (جغرافية انتاج) ... وذكر «المقدسى» كثيرا من عادات وتقاليد وطبائع السكان في الاقاليم التى زارها (جغرافية اجتماعية) كما درس المذاهب والقراءات وأصول التجويد والتفسير (جغرافية دينية)[٣٥]...

وقد أتجه التأليف الجغرافي عند علماء المسلمين فى مجال (الانسان والارض) اتجاها تطبيقيا عمليا ابتعد فيه عن الاتجاه الفلسفى أو الموضوعي المجرد الذى طبع الفكر الاغريقى فترة طويلة، وبذلك يقول «المقدسى» في مقدمة كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» مانصه: «... وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنه للصالحين والاخيار إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء . وتطلبه القضاة والفقهاء. وتحبه العامة والرؤساء، وينتفع به كل مسافر ويحظى به كل تاجر »...[٣٦] ويأخذ «المقدسى» على من سبقوه نقص الخبرة والممارسة أو التقصير فى الاعتماد عليها ... وفي ذلك ينقد «الجيهاني» ذاكرا أنه «جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك اليها...[٣٧].

ففى نظرة «المقدسي» تأكيد على ضرورة وجود العدة العلمية من خبرات على الباحث أن يتزود بها ليكون الترابط قويا بينه (الباحث) وبين (الانسان والارض). وهي خبرات ـ حسب وجهة نظر المقدسى ـ بشرية وطبيعية وممارسات عليه أن يقوم بها (ميدانيا) أثناء جمع المادة العلمية لمؤلفاته...

وتناولت الجغرافية البشرية عند المسلمين ميادين كثيرة تندرج تحت المفهوم الجغرافى البشرى ... من ذلك «الجغرافية الاجتماعية والحضارية» ... وفيها نهج الجغرافيون المسلمون، منهجا أصيلا يحلل عادات الشعوب وتقاليدهم وأنماط تجمعاتهم من بدو ـ وريف ـ وحضر ـ وأنواع ملابسهم... ومساكنهم ... وربطوا بين المناخ (الأهوية) وبين أمزجة الشعوب...

ويعتبر «ابن خلدون» من أحسن الذين كتبوا في الجغرافية الاجتماعية من الجغرافيين المسلمين[٣٨] ولعله في ذلك قد استفاد من منهجيه ابن رسته الذى ربط بين الجغرافية العمرانية كنتيجة لدور (الانسان فى الأرض) وبين المناخ والقرب والبعد عن الشمس.

ونهج ابن الفقيه الهمدانى المنهج[٣٩] نفسه.

وقد درس «الاصطخرى» شعوب الاقاليم الاسلامية دراسة وافية من حيث نظم معيشتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية ، وأثر المناخ في صفاتهم الجسمية مميزا بذلك بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى على أساس المناخ والبيئة...

وقد بنى «الاصطخرى» معلوماته بنفسه (بالمشاهدة) والمعايشة للبلدان التى زارها مثل «خوزستان» (عربستان) »، ويذكر المؤرخون أنه أعتمد على المناخ في تقسيم بلاد فارس فهى عنده قسمان:

فارس الشمالية أو «الصرود» ومنها أماكن يبلغ من شدة البرد فيها الا ينبت عندهم شئ من الفواكه وفارس الجنوبية أو «الجروم» (وبها ما يبلغ من شدة الحر الا يبيت عندهم شئ من الطيور... والصروم كلها صحيحة الهواء، والجروم يغلب عليها فساد الهواء)[٤٠]...

ويربط (المسعودى) ...[٤١] بين العوامل الجغرافية والعوامل البشرية محاولا رد الظاهرات إلى أسبابها... ويصف الجماعات البشرية وصفا دقيقا فى كتابه (مروج الذهب) حيث يدرس «الزنوج» دراسة بشرية فيقول:

«والزنج أولو فصاحة على ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب، على الخلق الكثير منهم، ويرغبهم في القرب من بارئهم ، ويبعثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه وصولته، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعة يرجعون اليها ، بل رسوم لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم»[٤٢]

وقدم البيروني في مجال (الجغرافية البشرية)[٤٣] منهجيه رائعة حين ربط بين الظاهرات الدينية في الهند وأسبابها الاقتصادية والاجتماعية، وهو بذلك يكون قد وضع اساسا قويا من أسس التفسير والتعليل الجغرافى عند الجغرافيين المسلمين... والتزم في

كتاباته في هذا المجال بالشجاعة العلمية، وتمسكه بالعلم اليقين ، وبعده عن الأوهام ، وإخلاصه لعلمه وعشيرته ولغته مع تواضعه، وأما أسلوبه فى الكتابة فقد كان أسلوبا علميا إلى حد بعيد ، موجها إلى الخاصة دون العامة ، وقد آمن إيمانا تاما باللغة العربية وفضلها على غيرها من اللغات، فكتب بها كل مؤلفاته تقريبا، وبذلك رفع شأنها وحبب الناس فيها ، ودافع عنها ضد كل تيار فارسى أو أعجمي...

ويمكن تلخيص منهج البيروني في الجغرافيا البشرية في النقاط الآتية:

* سلوك المسلك الحسى ... أى المنهج الذى يقوم على القياس والاستقراء في طلب المعرفة، وهو العنصر الرئيسى في النهضة العلمية الحديثة التى خطت بالانسان خطوات سريعة وثابة ماكان يحلم بها الأقدمون ...
* التواضع والتجرد من فكرة التفوق
* التحذير من كلام التقاليد
* الرجوع إلى المراجع الاصلية فيما كان يستعين به أو ينقل عنه.
* البحث والتجربة كوسيلتين لتحصيل المعارف ومعنى ذلك عدم الاخذ بما يسلم به على سبيل القياس.
* اعتبار أن النجاح والتوفيق (موهبة من الله تعالى).

ونحن نؤكد ذلك لأن «البيروني» يشترط التوكل على الله ثم المواظبة واستمرار الممارسة وهما من شروط النجاح العلمي في البحث الجغرافي[٤٤]...

ونالت (جغرافية المدن) ـ كعلم يدرس العلاقة بين الانسان والأرض . اهتماما كبيرا عند علماء المسلمين .. يتمثل ذلك فى كتب المسالك والممالك والاقاليم. كما هي الحال عند «اليعقوبي» وابن رسته» والجيهاني[٤٥]... وذكر «المقدسى» أن (السكان) يختارون (الأرض) المناسبة لاقامة المدن حسب موقعها الاستراتيجى ، ويستشهد على ذلك النوع من المدن بمدينة (آمد) التى ترجع أهميتها إلى موقعها الحصين وقلاعها، ونجده يتخذ (أسلوب المقارنة) لتبيان أختلاف الظروف التى تؤثر على (الانسان)من تخطيطه للمدن،

حين قارن بين (آمد) و (انطاكية) بأسوارها وأبوابها وقلعتها التى بنيت على الجبل . والمدن عند الجغرافيين المسلمين قد يرجع تشييدها لتأثير دينى على (الانسان) مثل مكة - المدينة - بيت المقدس . أما بغداد - الموصل - سيراف فقد اتخذت أهميتها من نشاط (الانسان) التجارى الذى كان له الأثر الأكبر فى تشييد هذه المدن - ومما هو جدير بالذكر أن (المقدسى) في كتابه (أحسن التقاسيم) قد (نقد) بعض الجغرافيين السابقين فى طريقتهم التى عالجوا بها جغرافية المدن، لأن بعضهم كان قد اقتصر على ذكر المدن العظمى مثل «ابن الفقيه» أو تركوا أمهات المدن مثل «البلخي»[٤٦]...

وحول العوامل الجغرافية وأثرها فى قيام المدن كمبدأ التطبيق (التفسير والتعليل الجغرافي) عند علماء المسلمين يقول (المسعودى)- «ان اصناف اختلاف البلدان أربعة: أولها: (النواحي) «وهو يقصد من ذلك»: (الموقع) ... والثاني: الارتفاع والانخفاض (أى طبوغرافية الموضع)... والثالث... مجاورة الجبال والبحار، والرابع ... طبيعة تربة الأرض»...

وقد أهتم «المسعودى» بتحليل العوامل الجغرافية التى لها أثر فى تشييد (الانسان)، للمدن المختلفة الأغراض والأحجام... وقد نهج في ذلك مبدأ (التفسير والتعليل الجغرافي) فيقول... «فارتفاعها يجعلها أبرد، وانخفاضها يجعلها أسخن»...

وبين «المسعودى» في (تفسيره وتعليله الجغرافى) لتفاوت الانماط المناخية بين المدن ... بقوله: «فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد ... لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية، وانما تهب فيه الريح الشمالية فقط... وعلى العكس من ذلك، اذا كان الجبل من ناحية الشمال... ولموقع البلد من البحر أثره في مناخ المدينة عند المسعودى... ونجده في ذلك يقول... «فإذا كان البحر من ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخن وأرطب، وإذا كان من البلد في الشمال، كان ذلك البلد أبرد وأيبس»... ووضع السعودى (تفسيرا وتعليلا جغرافيا) لنمط المناخ فى المدينة، لأسباب أخرى منها مثلا: نوع التربة التى يشيد (الانسان) فوقها (المدينة)... ونجده في ذلك يقول...: «فمتى كانت

تربة الأرض صخرية جعلت البلد أبرد وأجف، وإذا كانت جصية جعلته أسخن وأجف، وإذا كانت طينية جعلته أبرد وأرطب»...[٤٧].

كما ترك لنا «ابن حوقل» كثيرا من المعلومات المفيدة عن الجغرافية البشرية للعالم الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى مشتملة على أهم المدن والقرى التى زارها، وعن العادات والتقاليد والنواحى الاقتصادية المختلفة التى شهدتها هذه المدن والقرى كمناطق للاستيطان البشرى في ذلك الحين...[٤٨].

وقد حمل «المقريزى» على عاتقه مهمة توزيع المدن توزيعا جغرافيا على أقاليم الأرض السبعة وحصرها حصرا دقيقا في كل اقليم ... وقد ميز في ذلك تميزا دقيقا بين أنماط (الاستيطان البشرى) في كل أقليم على حدة... كما صنف المقدسى أنماط المدن تصنيفا دقيقا...[٤٩] وناقش ابن خلدون عوامل قيام المدن وازدهارها، وأسباب اضمحلالها بعد ذلك، وينقد المسلمين الأوائل لانشائهم كثيرا من حواضرهم دون النظر إلى البيئة الجغرافية وظروفها... مما أدى إلى زوال الحواضر التى ذكرها بزوال النفوذ السياسى الذى كان من ورائها... وذكر أن المدن الساحلية لابد أن تكون في حماية جبل أو أن تكون كثيفة السكان.

وقد شدد «ابن الفقيه» على ضرورة أخذ (الانسان) لعدة اعتبارات في تخطيط المدن. ومن أهمها (الجانب البشرى) وفي ذلك يقول... «ويكون نقى الجوار لأن الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق»...

ومن منهج العلماء المسلمين في دراسة قطاع المدن كفرع من الجغرافية البشرية ، الاهتمام بضرورة تأمينها بموارد المياه... وفي ذلك يقول (الاصطخرى) عن سمرقند... «فلم يرخانا أو زاوية في شارع أو ميدان الا وقد رتبت فيه السبل للمياه المثلجة... ولها ماء جار يدخل اليها فى نهر من رصاص، وهو نهر قد بنيت له سناة عالية من حجارة يجرى عليها الماء، ووجه هذا النهر رصاص كله «... ونجده يضع أسس الهندسة التخطيطية

للمدن بقوله عن آمد «ان الغالب على أبنيتها الخشب والبوص... وسطوحها فسيحة، لأنها كثيرة الأمطار شتاء وصيفا»...[٥٠].

وقد تفرع عن (الجغرافية البشرية) عند الجغرافيين المسلمين ، علم الجغرافية اللغوية ووضعوا لها أسسا وأصولا واضحة وربطوا بين الانماط الحضرية وبين اللغات عند الشعوب ومن أهم الذين برزوا في ذلك يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ بكتابه «كتاب اللغات». والاصمعى المتوفى سنة ٢١٣ هـ في كتابه «كتاب اللغات» وكذلك السيوطى، والمقدسى، والهمداني، وابن خلدون[٥١].

«مفهوم التفسير والتعليل الجغرافي عند علماء المسلمين فى مجال الجغرافية البشرية»

ظهر الدين الإسلامى في بلاد العرب وانتشر بسرعة خاطفة فى أنحاء المعمورة لتشمل رقعته في مدة وجيزة مساحات هائلة من (الارض) وأعداداً كبيرة من (السكان) فيما بين شواطىء الأطلسى غربا حتى حدود الصين شرقاً، ومن سواحل البحر المتوسط شمالا حتى المنطقة الاستوائية جنوبا... وفي الوقت الذى شهدت فيه أوربا ما شهدته من انحسار العلم وكسوف الحضارة وتقلص ظل المعرفة، كان فجر الحضارة والمعرفة يبزغ في العالم الاسلامي ليشمل ازدهار العلوم ومنها (الجغرافيا) التى كان لها شأن كبير يذكر فى حضارة العرب والمسلمين،[٥٢] ولذا يمكن القول بثقة واطمئنان أن ما يسمى (بالفترة المظلمة للفكر الجغرافي) من قبل الغرب، ماهو الا (تعبير نسبى) يمت بصلة إلى القارة الاوربية وحدها. أما بالنسبة للتراث الانسانى عامة، فان تيار الفكر بقى منسابا ومستمر الجريان بظهور الحضارة العربية الاسلامية الجديدة. ومن ثم فالفكر الجغرافى عند المسلمين يجب أن يكون الممثل الصحيح للفكر (الوسيط) أكثر من الفكر الاوربى المنحسر الذى أفل نجمه وطويت صفحاته.

فما أن دخل الناس من أهل البلاد المفتوحة في دين الإسلام، وأقبلوا لأداء فريضة الحج أو الاتصال بعاصمة الإسلام لشتى الأغراض، واحتاجت الخلافة لتأمين طرق المواصلات ولارسال الامدادات والمؤن واستقبال الخراج واتصالات البريد، حتى تجمعت المعلومات الجغرافية لمواجهة تلك الاعتبارات الجديدة في دولة الاسلام...[٥٣]

وسرعان ما أصبحت معارف المسلمين تتعدى محيط جزيرة العرب إلى العراق، وفارس، والشام، ومصر، وشمال افريقية وبلاد ما وراء النهر حتى الصين، وأدى أختلاط العرب بأهل هذه البلاد بالمصاهرة، والمحاورة، والمشاركة إلى انصهار لكل مقومات المعرفة الإنسانية ـ فى قالب اسلامى مميز وواضح ـ ومنها المفاهيم الجغرافية.[٥٤].

وبدأت جهود المسلمين بالترجمة في العهد الأموى، فعلى سبيل المثال ترجم ابن المقفع سنة ١٠٦ هـ كتاب كليلة ودمنة من الفارسية، وكتاب تحليل القياس لأرسطو. وفى بداية عصر العباسيين زمن أبى جعفر المنصور، ترجم (الفزارى) كتاب «السند هند» علاوة على تأليفه لكتاب الزيج، وكتاب المقياس للزوال، وكتاب الاصطرلاب المسطح وكتاب أرجوزة فى علم النجوم..

وكان حماس العلماء المسلمين شديدا نحو ترجمة المعرفة الجغرافية من كل حدب... وشجع الخليفة المأمون حركة الترجمة أيما تشجيع واعتبرها المرحلة الأساسية نحو بلوغ الفكر الجغرافى الاسلامي مرحلة النضج والاستقلال والاضافة والاثراء... ومن ثم فقد أقبل العرب على الاستفادة في كتاباتهم من مؤلفات بطليموس «وأرسطو» ولذلك فقد ظهرت فى البصرة في غضون القرن الرابع الهجرى أول موسوعة عربية حاول فيها العرب الجمع بين القصيدة والمعرفة، وكان لهذه الموسوعة الأثر الكبير على الجغرافية الاسلامية فى غضون القرنين الخامس والسادس الهجريين، حيث أصبحت كتابات أرسطو في نظرهم تلخيصا للفكر الجغرافى.[٥٥]

ولكن العرب لم يتبعوا في مجال الفكر الجغرافى كل ما ذكره غيرهم من اليونان والهند

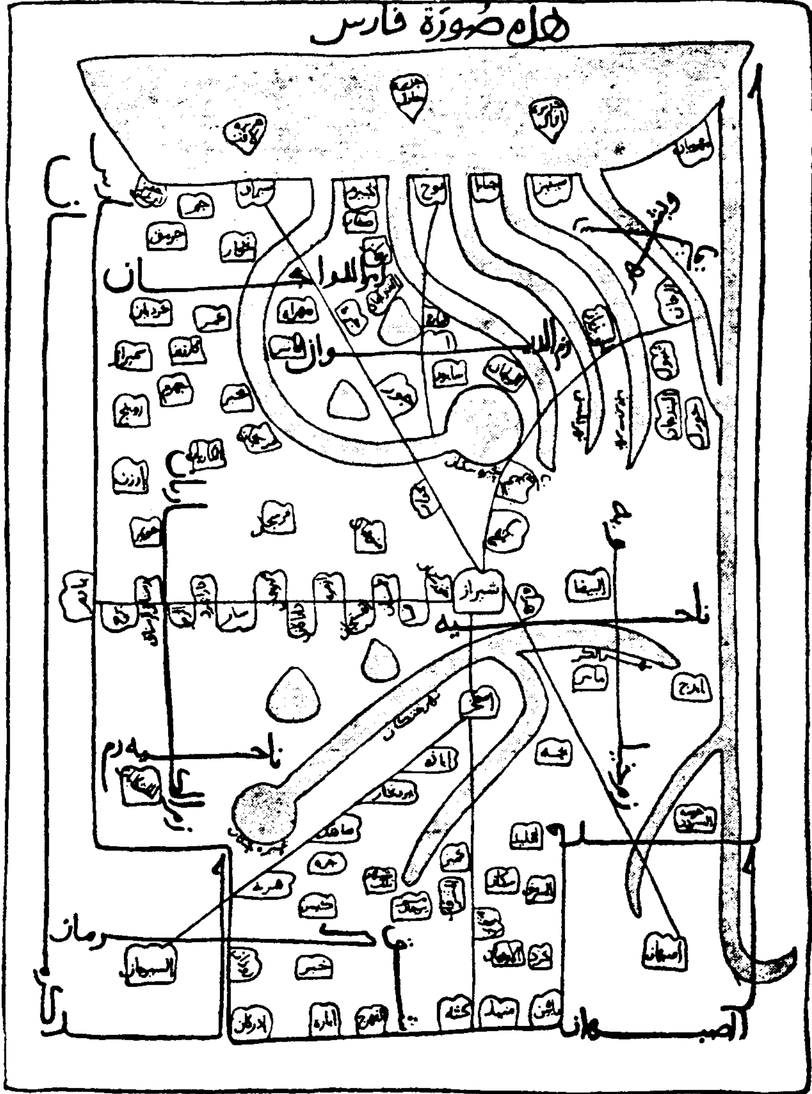
وانما كانت لديهم آراء خاصة بهم، بل إنهم فندوا كثيرا من آراء بطليموس كما يتضح ذلك في كتابات (البتاني) و (المسعودى)... كما قام العرب بتلقيح التفكير الجغرافى الاغريقى بالفكر الهندى...

ويمكن القول أن عهد الخليفة (المأمون) كان عهد أول مدرسة جغرافية عربية لها طابعها الخاص... وفي هذه المدرسة خرج الفكر الجغرافي من نطاق المعلومات والحقائق المتناثرة بين ميادين متعددة إلى (الكيان المستقل) الذى يتمتع بمؤلفاته الخاصة التى تحمل أسماء وعناوين تختلف تبعا للغرض الذى كتبت من أجله، وللمنهج الذى انتهجه فما كان يهتم بالارض عموما كان يحمل اسم (صورة الأرض) وما كان يتعلق بالفلك كان يحمل اسماء متعددة[٥٦] أهمها علم (تقويم البلدان) ، وما كان يتعلق بالوصف الخاص كان يحمل اسم (المسالك والممالك).

وكان منهج العلماء المسلمين فى أول أمرهم بالجغرافيا (منهجا وصفيا) سواء فى نمط الاتباع الذى حذا المسلمون فيه حذو الكتب التى نقلوا عنها وتأثروا بها في مجال الجغرافية الفلكية والرياضية والاقليمية والوصفية أو فى النمط الابداعى الذى ابتكره الجغرافيون المسلمون، في مجال الجغرافية الفلكية والرياضية والاقليمية والوصفية أو في النمط الابداعي الذى ابتكره الجغرافيون المسلمون، في مجال الجغرافية اللغوية والجغرافية الدينية والمعاجم اللغوية.

وسرعان ما توصل الجغرافيون المسلمون إلى (منهج التفسير والتعليل الجغرافي) لكل الظواهر الجغرافية وفى كل مجالاتها وميادين البحث فيها، وصارت لهم (مادة تعليلية) نجدها في مصنفاتهم الجغرافية الاسلامية التى اشتملت على جميع الفروع الجغرافية التى انقسم اليها علم الجغرافيا، وبرز اهتمام الجغرافيين المسلمين (بالانسان) واضحا وكانوا بذلك أول من جعل (للجغرافية البشرية) طابعا علميا راسخا لا يكتفي بمجرد الوصف وانما يتعدى ذلك إلى التحليل والتفسير والتعليل ...

لم يقتصر اهتمام المسلمين فى كتاباتهم الجغرافية على (الوصف) المجرد فحسب، بل أنهم عمدوا إلى تعليل وتفسير الظاهرات المختلفة... وفى ذلك يرى الأستاذ (بريستون جيمس «Preston James») ان المسلمين باشروا بتكوين الافكار الخاصة عن تكوين



خريطة فارس كما تبدو فى صورة الأرض لابن حوقل

الجبال لا سيما الالتوائية منها، كما عالجوا عمليات (التعرية) المائية لاسيما في المناطق الجبلية...[٥٧].

أما في (النواحى البشرية) فقد كان المسلمون أكثر إفصاحا في تبيان (العلاقة بين الانسان والارض) ... مثال ذلك الجغرافي العربى الكبير أبن «حوقل» الذى عاش في القرن الرابع الهجرى وألف كتاب «المسالك والممالك»... إذ يعتبره كثير من الجغرافيين الغربيين المعاصرين من أوائل الحتميين الذين استطاعوا (الربط) بين (المناخ) وأثره فى نشاط الانسان بأقاليم الأرض المختلفة... كما وضـع (تفسـيرا وتعليلا) علميا لتـدرج السلالات البشرية في الاقاليم السبعة حسب نمط المناخ السائد بكل منها... فنجده قد قسم العالم المعروف آنذاك إلى قسمين أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، وجعل الخط الفاصل بينهما» يمتد من غرب إفريقية إلى مصر، ومن الخليج العربى إلى هندستـان وأواسـط الاقاليم الاسلامية فى آسيا»... ثم نجده يذكر بعد ذلك «ان سكان الاقليم الجنوبى يمتازون بالبشرة السوداء التى تشتد سمرتها كلما اتجهنـا جنوبـا بينما سكان الاقـاليم الشمالية يمتازون بلون البشرة الفاتح والذين يزدادون بياضا كلما اتجهنا نحو الشمال حيث يوجد المناخ البارد»...[٥٨].

وبذلك يعتبر (ابن حوقل) من أعظم الجغرافيين المسلمين الذين جعلوا (الجغرافية) توحد بين الظاهرات المختلفة ، طبيعية وبشرية، في المكان، ومن وجهة نظر إنسانية وكأنه ينظر إلى الجغرافيا ككل، ويضعها في وضعها الحقيقى كوحدة طبيعية اجتماعية وبذلك صارت الجغرافيا عنده بمثابة الجسر بين العلوم الطبيعية والاجتماعية ، والمجال الخصب للبحث عن (العلاقات) بين مختلف الظاهرات، ثم تحليل الظاهرات الطبيعية (كالمناخ مثلا) والبحث عن علاقتها بالنشاط البشرى عامة...

ولئن كانت الجغرافيا بهذه الصفة التفسيرية والتحليلية عند (ابن حوقل) فقد كان عنده أيضا علم تركيبى...[٥٩] فالجغرافيا عنده ـ والحالة هذا ـ علم يربط بين الفروع المتخصصـة في العلـوم البيئية الأربعـة «Environmental Sciences» وهـي النبـات

والفيزياء والجيولوجيا والفلك ـ والانسان وعلومه البشرية أو الانسانية «Human Sciences» وهي التاريخ والانثروبولوجيا (علم الانسان) والاجتماع والجغرافية الاقتصادية.. فابن حوقل » حين يتحدث عن (ايران) التى قسمها إلى قسمين أحدهما بارد والآخر حار ... يذكر لنا أنه في القسم الأول الذى يقع فى الشمال «الفاكهة لا تنضج، وان القمح لا يزرع إلا في منطقة أصطخر، رغم أن المناخ فى هذا الأقليم صحى ولطيف، وأن (سكانه) أكثر سمنة وأكثف شعرا من سكان الأقاليم الحارة...» أما فى الأقليم الحار الذى يقع فى الجنوب «فالمناخ أقل اعتدالا ولا سيا في منطقة «سجستان»، كما أن السكان ضعيفو البنية ولونهم قمحى»...[٦٠] ويواصل ابن حوقل حديثه عن الاقليم الجنوبي فيقول... «ان في بعض أجزائه اذا وضعت قطعة من اللحم على صخر في فصل الصيف فانها تشوى، وأنه لا يعيش في تلك، المناطق الطيور بسبب الحرارة الشديدة»...

وهكذا نلمس بكل وضوح روح الاستقلال الفكرى عند علماء المسلمين... ومن شأن الاستقلال الفكرى أن يكون من وراء (مفاهيم) جديدة واضافات وتجديد في الجغرافية وقد تولى غير (ابن حوقل) بعض الصفوة من الجغرافيين المسلمين، ابداع ترسيخ هذه (المفاهيم) الجديده في كتاباتهم الجغرافية، وهذا معناه أن الجغرافيين المسلمين تحولوا من (القبول الصامت) للظاهرة الجغرافية، إلى إعمال العقل بالتفسير والتعليل واثارة التساؤل الذى يبحث عن (السبب) أو التفسير المعقول...

... (والتفسير) حس واستيعاب ، وادراك، وفهم للظاهرة الجغرافية أولا ثم هو اجتهاد وبحث واضافة مثمرة إلى الخبرة الجغرافية، ثانيا...[٦١] هذا وقد نلمس فكر واجتهاد بعض الجغرافيين المسلمين (التفسير المعقول)، من خلال وضع علاقة بين العوامل الجغرافية والصفات الجسمية (للسلالات البشرية)... من ذلك ما ذكره (المسعودى) في كتابه... (مروج الذهب)...

(واما الجبال فتخشن الاجسام وتغلظها ... لما هي عليه من غلظ التربة ومتانة الهواء وكل بلد اعتدل هواؤه، وخف ماؤه ، ولطف غذاؤه، كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتجاذبه... وكل بلد يزول عنه الاعتدال انتسب أهله الى سوء الحال)...[٦٢]

... ومن كتابات ابن خلدون في مقدمته ، ومن غيره من الجغرافيين المسلمين، نتبين كيف كان الاهتمام (بالتفسير والتعليل الجغرافى) الذى يعالج (الظاهرة البشرية)والاتجاه الهادف إلى دراسة (الانسان) فى احضان (الارض) ... ودراسة ابن خلدون في البيئة وحياة الانسان في هذه البيئة ، ومدى خصائص هذه البيئة تعطى الانطباع الذى يصور جدية البحث وهو يعالج الظاهرة البشرية... ففى مقدمته ذكر أن «... الاقليم الرابع أعدل العمران... فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات (فيه) مخصوصة بالاعتدال... حتى التنبؤات فانما توجد فى الاكثر فيه.. وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال... فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أحوالهم»...[٦٣] ولا شك أنها دراسة هادفة برز فيها تقصى حقيقة العلاقة بين (البيئة) و (الانسان) ... الى حد الافراط في تصوير مدى تأثير البيئة على حياة الانسان...[٦٤]

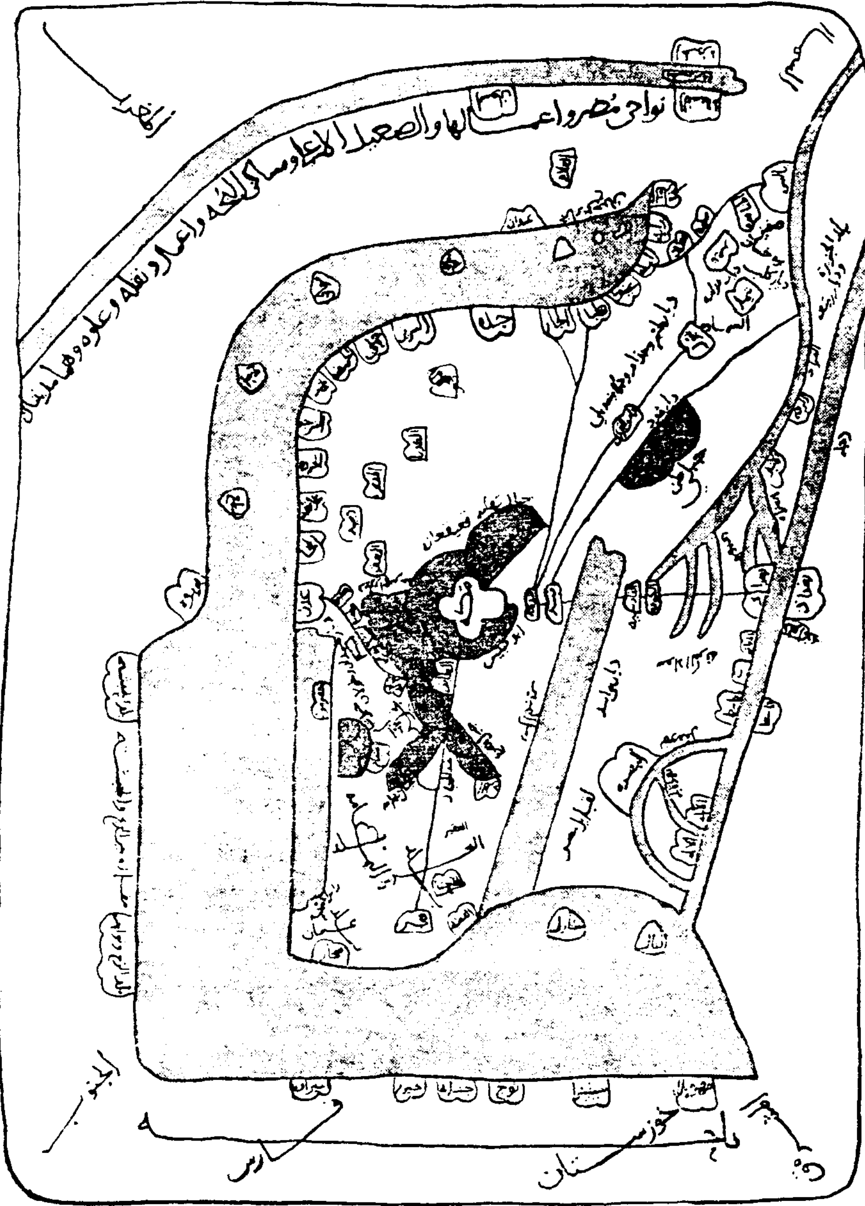
وليست مشكلة أثر البيئة في الانسان داخله في نطاق بحث الجغرافي الصرف، فالجغرافي لا يهتم كثيرا بالتاريخ، بل انه ليقتصر على الجغرافية، ولذلك فان معالجة مثل هذه المشكلة المعقدة تحتاج إلى جغرافي تاريخى. أو مؤرخ جغرافي وضليع ـ كابن خلدون في الوقت نفسه بعلم الاجتماع... فمؤرخ عظيم مثل «ابن خلدون» امتاز بسعة الأفق في مادته وعمق الفهم للجغرافية، قد أماط اللثام عن السلوك البشرى، وسلط الأضواء على (العوامل الخارجية والعوامل الداخلية) التى تؤثر في ذلك السلوك، ولم يهمل أى عامل له أثره في ذلك السلوك على الرغم من تخصصه في مادته... مثل هذا المؤرخ النادر المثال هو الذى اهلته ملكاته للقيام بمثل هذا العمل الدقيق الهام... الا وهو دراسة العلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية على وجه الخصوص وفي ذلك يقول «ابن خلدون» «ان الاجتماع الانسانى ضرورى، أى أن الانسان مدني بطبعه أى لابد له من الاجتماع الذى هو (المدنية) في اصطلاحهم وهو معنى (العمران)... (ويعلل ذلك بأن للانسان متطلبات كثيرة الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من الغذاء... ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى وهكذا.

ومما هو جدير بالذكر أن ابن خلدون في كل المسائل التى تبحث في أثر البيئة والوسط الجغرافى في حياة البشر رائد في ميدانه، فما كان هذا المنهج قبله قد خضع لفحص منظم ودقيق كذلك الذى رأيناه ... ومن ثم فهو مجدد في هذا المضمار، اذ أن مثل أفكاره لم تظهر في أوربا الا بعد مضى عدة قرون وذلك ابتداء من «مونتسكيو». فقد أثبت ابن خلدون ان (الارض موطن الانسان)... وأن الانسان ـ بصرف النظر عن صفاته الأخرى جزء من البيئة ... وقد ينظر (بعضهم) الى هذه الحقيقة على انها مجرد تقرير لواقع ملموس ولكن (الجغرافي) بنظرته الثاقبة، يراها حقيقة عميقة جديرة بالدراسة المفصلة والتأمل الدقيق... فقد سبق ابن خلدون غيره في اعتبار الجغرافيا في واقع طبيعتها الموضوعية معتمدة على ضرورة الدراسة الدقيقة للظاهرات ذات المغزى الواضح في ميدان (الارض)..... و(الانسان)...[٦٥] وسبيل الجغرافي الى هذا النوع من الدراسة يتمثل فى العين اللاحظة والعقل المفكر الذى يستطيع أن يتتبع المنهج السليم للتفسير والتعليل توصلا إلى تكامل المفهوم الجغرافي وشموله.

الانسان واستخدام الأرض في التفسير والتعليل الجغرافي عند الجغرافيين المسلمين

كان منهج العلماء المسلمين في التفسير والتعليل الجغرافي لاستخدام الانسان للأرض، يقوم على الاهتمام بالانسان كأحد أهم (الضوابط) التى تؤثر في الانتاج الاقتصادى، فنجدهم قد تحدثوا عن العلاقة بين الانسان وموارد المياه في الزراعة، والعلاقة بين الانسان وتخطيط الارض في توزيع الغلات الزراعية والثروة المعدنية . واهتموا (بالانسان) كأهم عناصر الانتاج الصناعي وكعنصر وحيد في وضع ضوابط النشاط التجارى على الأرض....

وتبدو العلاقة بين الانسان والارض في كتابات ابن «خلدون» الذى يعتبر (الانسان) المحرك الرئيسى لعوامل الانتاج الزراعي فيقول... «انها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام



خريطه يحتل البحر الأحمر فيها مكانا بارزا وتوجد مصر الى الغرب بينما توجد جزيرة العرب الى الشرق منه وأخذت مكة المكرمة موقعا قريبا جدا من القمة وخصوصا وضع الجزيرة العربية

المصدر صورة الأرض لابن حوقل

على اثارة الارض لها وازدراعها، وعلاج نباتها وتعهده بالسقى والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلاته... وهي اقدم الصنائع كما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا».

وأعمال الرى من أهم آثار (الانسان) الايجابية في الارض لاستخدام الأرض في الزراعة[٦٦] ولما كان الرى يلعب دورا بارزا فى الاقتصاد الزراعى وبخاصة فى الأقطار الاسلامية التى يقع معظمها في مناطق جافة أو شبه جافة، يتذبذب فيها المطر فقد عنى الجغرافيون المسلمون بتوضيح العلاقة بين هذا النمط المناخي وصورة استخدام الارض فى (الاقاليم السبعة المعروفة آنذاك... (فالمقدسى) وضع (تفسيرا) علميا رائعا لضرورة جمع ماء المطر والمياه الجوفية حتى لا تضيع قطرة واحدة بسبب قلة وجود الانهار في الجزء الشرقى من «فارس» ، ويشير «المقدسى» الى جهود (الانسان) فى استخدام موارد المياه المتاحة ، والتى دعمها «عضد الدولة بن بويه» بين «شيراز» و«اصطخر»، حيث أقام (السكان) على النهر سدا يرفع الماء لرى القرى ومزارعها». [٦٧]

وكانت (الزراعة) نمطا معروفا من أنماط استخدام الانسان للارض عند (سكان) الجزيرة العربية... وخصوصا أهل الواحات الذين تتوفر لهم المياه، أما أهل البادية فكانوا يكرهونها. وقد نشأت هذه الكراهية لعدم توفر الماء والأرض...[٦٨] ويصف (الهمدانى) دور (الانسان) في صيانة الموارد المائية في جزيرة العرب اذ تجمع مياه الأمطار في (برك) تحاط بالحجارة.

ويتحدث المقدسى (عن سبب) مهارة أهل دمشق في الزراعة فيقول... «وهو بلد قد خرقته الانهار، وأحدقت به الاشجار ، وكثرت به الثمار مع رخص الاسعار»...[٦٩]

وقال يحيى بن اكثم... «ليس بالارض أنزه من ثلاث بقاع ، سمرقند ، وغوطة دمشق ونهر الأبلة» ... وعن جهود أهل «القيروان» في استخدام موارد المياه، يقول المقدسى.... «وشربهم من مواجين، وصهاريج يجتمع فيها ماء المطر ، وقد أجرى لهم المعز من الجبل

(قنوات) تملأ المواجين بعد ما تدخل قصره ...» وعن فسطاط مصر يقول... «كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء ، صحيح الهواء، معدن العلماء ، طيب الشتاء، أهله أهل سلامة وعافية، ومعروف كثير وصدقة، نغمتهم بالقرآن حسنة، ورغبتهم فى الخير بينة»...(٧٠)

ويضع ابن حوقل (تعليلا) علميا سليما لانتعاش الزراعة في (الصفد) و (سمرقند) باستخدام (الانسان) هناك لنظام القنوات...

وقد اهتم جغرافيو الاسلام في دراساتهم بالحديث عن التوزيع الجغرافى للغلات الزراعية فى بلاد المسلمين وأهميتها المحلية فى تحقيق الأمن الغذائى للشعوب... بل تجد (المقريزى) يتوسع في (التعليل الجغرافي) ويذكر لنا لماذا تختلف غلة الفدان في مصر وبلدان المسلمين الاخرى من بقعة إلى أخرى، ويقول: إن «السبب» هو مدى جودة الارض ووفرة مياه الرى ومقدار جهد (الانسان) ... ويتحدث (بالتفسير الجغرافى) عن اتخاذ (الانسان) نظام «للدورة الزراعية» فى (مصر)... ومما يروى في كتب التراث أنه كان من واجبات الدولة أن تسهر على صيانة السدود، وكانت هناك جماعات متخصصة من السكان تتفرغ تماما لهذه المهمة والمدهش أنهم كانوا يسمون: (المهندسين)(٧١).

وكان جهد الانسان عظيما في صيانة السدود نظرا لانها كانت تبنى عادة من الطين والقصب فلا تقوى طويلا على القيام في وجه المياه الجارية ... وورد في (الأوراق البردية) اهتمام حاكم مصر «أحمد بن طولون» بالزراعة وتسهيل الرى ليتمكن (الانسان) من (استغلال الارض)، وأن سبيله إلى ذلك كان حسن العناية بالترع والقنوات، وحسن استخدام المياه للرى وكانت الدولة تمد الفلاح بحاجته من البذور والآلات الزراعية مما أسفر عن نهضة زراعية كبرى...

ويحدثنا «المقريزى» أنه استغل في الزراعة نحو (مليون) فدان فى العصر الطولوني وكان هذا أعظم (استغلال) شهدته مصر آنذاك... و(يعلل) المقريزى انتشار الغطاء

الأخضر فى اقليم «الفيوم» بمصر بجهد الانسان الكبير في سبيل تخطيط استخدام موارد المياه، وذكر أن «الفيوم» منخفض في غربى مصر...[٧٢] وانه مصفاة لمياه الصعيد، ويذكر ان (سبب) ذلك هو أن هذا الاقليم يمثل (بطيحة) تجتمع فيها فضول ماء الصعيد، وان يوسف عليه السلام، لما تولى أمور مصر، ورأى ما لقى أهلها من القحط، أوحى الله تعالى اليه أن أحفر ثلاثة خلج: خليجا من أعلى الصعيد، وخليجا شرقيا، وخليجا غربيا... كل واحد من موضع كذا إلى موضع كذا... ثم أمر يوسف العمال بقطع ما كان بها من القصب والطرفاء فصارت (الجوبة) أرضا طيبة... «كل ذلك في سبعين يوما، فخرج وأصحابه (أى يوسف عليه السلام) فرأوا ذلك، وقالوا: هذا عمل ألف يوم، فسمى الموضع: (الفيوم)... ثم صارت تزرع كما تزرع أرض مصر، وبنى بالفيوم ثلاثمائة وستين قرية، وقدر أن كل قرية تكفى أهل (مصر) يوما واحدا[٧٣]... وتحدث البكرى عن دور الانسان المصرى فى استخدام الأرض باقليم الفيوم، وشرح سد «اللاهون» الشهير وفوائده للزراعة فقال... أنه حجر بين قبتين مدرج على ستين درجة، فيه فوارات للماء، يدخل الماء منها الى الفيوم قدر ما يكفيها ، وهو من أحكم البنيان، بالهندسة عمل، وبالفلسفة أتقن، وفى السعود نصب...

(ويعلل) البكرى تسمية الاقليم بالفيوم نقلا عن عبدالملك بن جيلب لأنها يؤدى منها الى السلطان في كل يوم ألف دينار... وخليج الفيوم يسقى اعلاها ووسطها وأسفلها بماء واحد، ولا يعدم بها التمر والرطب شتاء ولا صيفا... واذا كان يوم سد «حجر اللاهون» أتى أمير الناحية وعدول الناس، وأهل الهندسة يشهدون سده، لئلا يدعى أحد نقصا من الماء ويحضر ذلك أمير الفيوم، ويكتب بالبشارات إلى مصر...

ويضع (البكرى) تفسيرا جغرافيا لقيام (السكان) بزراعة الأرض مرتين فيقول : إن ماء النيل إذا زاد على اثنى عشر ذراعا قطع أهل الفيوم جريانه، فسد لهم هناك عند موضع يعرف بالشجرة ... وهى شجرة عظيمة. فاذا كان أول حصاد أهل مصر، كان ذلك أول السقية الثانية لأهل الفيوم، وحينئذ يسيل حجر «اللاهون»، ويصبح الماء مناسبا لاستنبات القمح والشعير والارز....[٧٤]

وقد اقتضى النظام الزراعى في مصر أن يقسم (الانسان) الارض إلى مجموعة من الوحدات الادارية، وذلك تنظيما لاستغلال الارض وتسهيلا للحكم وجباية الضرائب، وكانت تلك الاقسام الادارية تزيد أو تنقص، وتندمج أو تنفصل حسب الظروف (الطبيعية أو البشرية) التى تمر بها المنطقة.. فقد كان لقوة الدولة أثرها فى اتساع العمران في الاراضى الزراعية وازدياد السكان... وفي فترات الضعف كان السكان يهملون تطهير الترع والمصارف مما يؤدى إلى خراب القرى وجدب الأرض.

ويذكر (البكرى) جهود سكان الاسكندرية في استخدام موارد المياه فيقول..... (وإذا زاد النيل في أيام زيادته ، دخل في الخليج الذى «صنع» لذلك، حتى يصل الى الاسكندرية، فاذا وصل إلى أعلى المدينة، لهم هناك آبار مصنوعة ومواجن «أى احواض لجمع الماء» يستقون منها بالسواني[٧٥]... من ماء النيل، ويصبون فيها، ويجرى الماء منها في قنى قد أحكمت الى آبار... فاذا وصل الماء إلى الآبار استقى أهل الآبار ، وصبوا في المواجن ، فيشربون منه باقى عامهم).

وذكر (ياقوت الحموى) في معجمه أن الزراعة فى الدولة الاسلامية ـ كنمط من أنماط استخدام الارض «land use»متنوعة الصور،وأن (تعليل)ذلك يرجع إلى أنه كان لكل واد أو قرية (تخصص) انفرد به في الزراعة. ففى أقليم أردبيل[٧٦] مثلا، كانوا يحرثون الأرض على ثمان من البقر، لكل اثنتين منها سائق،... أما بمدينة «أبرقوه» بفارس فكان أهلها لا يزرعون على البقر مع كثرتها في بلادهم[٧٧]

وخلال القرون الاربعة الاولى للهجرة كان العراق الادنى يتمتع بأزهى عصوره الزراعية بسبب مشروعات الرى الكبرى (وانماط استخدام الأرض) التى تم انجازها حتى العصر الساسانى فكانت المزارع تتوسع على حساب المناطق الخاضعة للرى والصرف الجيد، وخصوصا على حافة المستنقعات الكبرى، ونشطت أعمال (الاعمار الزراعي) فى العصر العباسى (يعلل) الجغرافيون ازدهارها بسبب حث فقهاء البلاد على ذلك، من أمثال أبي يوسف يعقوب المتوفى سنة ١٨٢ هـ. ولعل هذا بالفعل هو السبب في

توسع مشروعات الرى، واخضاع مساحات كبيرة للزراعة ولاسيا أراضى (السواد) المؤلفة من تراكم الطمي الذى جلبه النهر، وهى أراض، سوداء خصبة راحت تتغطى بمزروعات غذائية ضرورية لاطعام السكان المتمركزين في المدن.

وتفسير ذلك أن التشريع الاسلامى شجع المسلمين على استثمار الارض ومنح حق التملك والاعفاء من الضريبة لكل رائد يقوم باحياء (الارض) الموات... ولاشك أن الازدهار الذى شهدته منطقة العراق الادنى زمن الخلافة العباسية في المجال العمرانى وظهور المدن الكبرى بالاقليم مثل بغداد ـ البصرة ـ الكوفة ـ واسط ـ سامراء، انما يكمن (تفسيره الجغرافى) في كفاءة أرض السواد وخصوبتها، من جهة، ونشاط السكان الزراعيين وعمال الرى من جهة أخرى .

كما أمتد أثر الاستقرار السياسي في دولة الاسلام الى (انماط استخدام الارض) في مناطق أخرى من اقاليم الدولة الاسلامية المترامية الاطراف... ففى اقليم (الديلم)...... نشط (السكان) فى استخدام الأرض، فى المجال الزراعى حيث ازدهرت زراعة القطن والارز وقصب السكر والبرتقال وأشجار التوت التى نشطت عليها تربية دود الحرير، و(تعليل ذلك عند الجغرافيين المسلمين) أن الخلافة الاسلامية منحت هذه المزروعات الغذائية والصناعية (تسهيلات) خاصة مما دفع بها الى الامام ...

وفي «سجستان» ... يعلل الجغرافيون المسلمون ازدهار الزراعة وتربية البقر... ، بخصب التربة ووفرة الطمى... ووجود شبكة واسعة لمشروعات الرى... ومن هنا جاء (تفسير) الجغرافيين المسلمين لنجاح زراعة القمح بصفة خاصة... حتى لقد أطلق الجغرافيون على الاقليم أنه (عنبر غلال بلاد الشرق الجنوبية الشرقية)... ويفسر الجغرافيون المسلمون ارتفاع الكثافة السكانية بالاقليم خصوصا حول «زرنج» بانتعاش الزراعة واتساع السهول الفسيحة لتربية البقر الهندى ذى السنام أو سلالات بقر الزيبو..

و(يفسر) «المقدسى» ازدهار الحياة الاقتصادية في «فلسطين» بكثرة زراعة الزيتون في

مدينة نابلس، حيث كان زيت الزيتون يحرز في جباب كبيرة.. ويباع لبلدان أخرى...

اتساع مساحة المملكة الاسلامية كما يصورها بن حوقل فى صورة الأرض

ويروى الجغرافي «ابن سعيد» في القرن السابع الهجرى أن (سكان) المناطق الزراعية في (الاندلس) بعد الفتح الاسلامى كانوا في الغالب من العرب ومن (البربر) الذين قدموا مع الفتح من بلاد المغرب.. أما العرب فلم ينصرفوا للزراعة مباشرة بل استقروا فى المدن أولا وكسبوا رزقهم من العوائد التى كان يدفعها (الزراع) الذين انتشروا فى السهول...[٧٩] وقد صبغت الحياة بقالب عربى أصيل فى كل شئ، ولا نزال نعثر على اسماء عربية في سهول شرق الأندلس levante ومعظمها يبدأ بكلمة (بني) مثل: بنى فايو قرب بلنسية، وبنى قاسم قرب (قشطلونة) وبنى غانم بجوار (شاطبة)..... واختار (البربر) الوافدون مع الفتح الاسلامى من المغرب الجبال مستقرا لهم فى الاندلس وكانوا يعملون في تربية الماشية، وزراعة الاشجار المثمرة مثل الزيتون.

ويتمثل الجهد البشرى في المجال الزراعي فى العهد الاسلامي بالاندلس في اعمار مناطق كانت شبه خاوية تقريبا.[٨٠] فقد نشط السكان في تحويل ما كان يسمى Juncarius campus الى بساتين مروية وأرض تجود بمختلف الثمار والمحاصيل... والتعليل الجغرافي عند علماء المسلمين مثل «ابن سعيد» لهذا الاسلوب الرفيع فى (استخدام المسلمين للأرض) بالاندلس هو ملاءمة المناخ والتربة الجيدة وتنظيم الرى... ومن ثم فقد جادت (الارض) بثمار المحاصيل التى جلبت من الشرق كالموز والبرتقال والأرز والقطن وقصب السكر. هذا بالنسبة للمناطق الشرقية من الاندلس، أما في الغرب. فقد تمثل نشاط السكان في قطع اشجار الصنوبر من الغابات، واحلال الزراعة محلها، وهكذا غرس السكان اشجار الزيتون...

ويذكر لنا ابن حوقل (تفسيرا جغرافيا) معقولا لتضخم واتساع مدينة « بالرمو » بصقلية زمن الفتح الاسلامى حتى وصل عدد سكانها الى (٣٠٠٠٠٠) نسمة... باتخاذ التخطيط الزراعي المتقدم لاستخدام (الأرض) استخداما أمثلا كتطوير أسلوب الرى بما يتلاءم مع نظام (الهورتة... Huertas) (اى الحراثة) ... ومن ثم فقد ازدهرت زراعة القطن وقصب السكر والبرتقال... وهكذا جعل المسلمون من «بالرمو» أعظم منطقة جذب سكاني في جزر البحر المتوسط الجنوبية[٨١]... كما ربط ابن حوقل بين زحف الكثبان

الرملية وبين عرقلة استخدام الانسان للأرض في افغانستان»... وذكر أن (الانسان) بذل جهدا خارقا هناك للحيلولة دون (سفى الرمال) مشيرا إلى أن تلك البلاد سبخة مفككة تغطيها غرود الرمال وكثبانها الهلالية، وحين كانت الرياح تشتد لفترة طويلة متواصلة كانت الرمال تغطى كل شئ... الزرع - مراكز الاستيطان البشرى - القنوات، حتى أن السكان نصبوا عليها أرحاء، يسيرونها بها... وعملوا الحيل حتى حولوا مجرى الرياح بسدود أقاموها لهذا الغرض....

ويشترك كل من «اليعقوبى» و «ياقوت الحموى» في وضع (تعليل جغرافى) لازدهار الزراعة وتطور استخدام الارض زمن الخلافة العباسية في بغداد. بأن الخلفاء أنفسهم كانوا يهتمون شخصيا بالاسلوب العلمي في استخدام الارض في أروع صورة، فقد عملوا على - (علي حد قولهما) - تيسير الرى حتى يتمكن (السكان) من زراعة الأرض دون جهد ومشقة، يتمثل ذلك في شق الترع واقامة المصارف وتشييد القناطر، ولما كانت الأرض الواقعة بين نهرى دجلة والفرات خصبة، زاد انتاجها بعد تحسين وسائل الرى بها... ويذكر العالمان الجغرافيان الشهيران أن الخليفة «المنصور» ، وضع تخطيطا علميا لاستغلال مياه نهر دجلة بأن أمر بشق عدد من الجداول والترع تستمد مياهها منه، لتيسير رى الأراضي القريبة منه مثل قناة «دجيل»، كما أحسن استغلال نهر الفرات - على الرغم من قلة مياهه وذلك باقامة قناة تأخذ من «كرخايا» إحدى روافد الفرات - وتجرى في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالآجر من أعلاها، وتنفذ في أكثر شوارع بغداد صيفا وشتاءً. وصممت بحيث لاينقطع ماؤها في أى وقت من الاوقات.. كما يروى أن المنصور أمر بشق قناة تجرى إلى الكرخ وما اتصل به، سميت نهر الدجاج، ونهر يسمى نهر طابق، ونهر عيسى الأعظم الذى يستمد معظم مائه من الفرات، ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد - ومن بينها الصراة - ويصب في دجلة[٨٢]... واستخدم العباسيون الاسلوب العلمي في استخدام الارض في المجال الزراعي فدرسوا الوسائل التى تؤدى إلى خصوبة الارض، وأنواع النباتات، ونوعية التربة التى تصلح لكل نبات[٨٣]... ورشحت المستنقعات بنظام دقيق[٨٤]...

وقد وضع «البغدادى» (تفسيرا جغرافيا) علميا رائعا لصلاحية التربة للاستغلال

الزراعي فقال: إن الأرض الرملية الخالصة لا تصلح للزراعة (بسبب) تعرضها لسرعة العطش إذ يفيض فيها الماء فلا ينتفع به نبات... ولكنها كلما زادت نسبة الصلصال زادت صلاحيتها للزراعة ومن ثم فقد ذكر، أن أرض مصر في الأصل رملية لا تصلح للزراعة ولكنها يأتيها طين أسود فيه دسومة كثيرة يسمى (الأبليز). وذكر أن هذا (الغرين) يأتيها من بلاد السودان مختلطا بماء النيل عند مده، فيستقر الطين وينصب الماء فيحرث ويزرع...

ويذكر «المقدسى» أنه كان يستعمل فى قسمة الماء.. بجميع بلدان المسلمين الجهاز المائى الذى كان يسمى بالفارسية الطرجهارة[٨٥]... كما يذكر ياقوت الحموى ان الزراعة فى الدولة الاسلامية كانت متنوعة الصور، حتى كاد كل واد أو قرية يكون منفردا بشئ ابتدعه[٨٦] كما ذكر أن (الزراع) من المسلمين كانوا يعتنون بتسميد الأرض عناية كبيرة في جميع البلاد وكانوا يستعملون في ذلك ما يخرج من روث البقر والغنم، وما يخرج من فضلات الانسان أيضا ويروى «المقدسى» أن الأول كان يباع في العراق بالسابل ، وكان للفضلات الانسانية قيمة فى البصرة حيث كانت تستخدم فى زيادة انتاجية الأرض... كما يذكر «المقدسى» اهتمام المسلمين بالثروة الحيوانية كوسيلة للاستخدام الأنسب للأرض واستغلال لحومها وألبانها وأوبارها وجلودها فيقول أن العراق فى القرن الرابع الهجرى كانت لا تزال بلادا تربى البقر، وكان الأنباط المقيمون هناك يعرفون بأنهم «فرسان البقر» وأن الجاموس لم يتغلب في هذه البلاد الا حينما زادت البطائح والمستنقعات[٨٧]... ولم يذكر استيراد الحيوانات للذبح إلا بمصر، فكانت تجتلب السائمة من «برقة» ، وكانت «برقة» هذه ذات مزارع تصلح عليها السائمة وكانت أكثر ذبائح مصر منها[٨٨]... وكانت جزيرة العرب خير منبت للجمال ذات السنام الواحد، ويذكر «الاصطخرى» أن «بلخ» كانت مشهورة بالجمال ذات السنامين، وهي المسماة بالجمال «البخت» وهي أفضل من كل ما عداها[٨٩]...

وقد أوضح «ابن العوام «دور الانسان في استخدام الأرض عند العلماء المسلمين، وذكر أن معنى «فلاحة الأرض» عند المسلمين: هو اصلاحها، وغراسة الأشجار فيها ،

وتركيب ما يصلحه التركيب منها، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها ، واصلاح ذلك وامداده بما ينفعه ويجود، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه، ومعرفة الارض جيدها ووسطها، والردئ منها ومعرفة الموعد المناسب لزراعة المحاصيل التى تتلاءم مع كل صنف منها... وذكر ابن العوام في كتابه : « كتاب الفلاحة » ... مدى اهتمام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (بتفسير) دور الانسان فى استخدام الأرض... اذ يقول صلى الله عليه وسلم: .. «من غرس غرسا أو زرع زرعا فأكل منه انسان أو طائر أو سبع كان له صدقة»...[أ] ويقول... «من غرس غرسا فأثمر، أعطاه الله من الأجر بقدر ما يخرج من الثمر»...[٩٠] (ب)

ولم يغفل الجغرافيون المسلمون الحديث عن (العلاقة بين الانسان والارض فى مجال استغلال الثروة المعدنية) وتوزيعها واستخداماتها الاقتصادية ، وطريقة استخراجها والصناعات القائمة في ديار الاسلام، فيتحدثون عنها فى شئ غير قليل من التفصيل... فقد عددوا أنواعها ومراكز استغلال الانسان لها، ووسائل التجارة فيها وأهم مراكز التجارة والطرق التى تربط بين هذه المراكز...[٩١].

فقد ذكر «ابن خلدون» اهتمام المسلمين بمناجم الحديد وأنهم عرفوا توزيعاتها واستخرجوه منها، وأن دمشق أزدهرت بها بعض صناعات الحديد كالسيوف ، ويرجع تاريخ هذه الصناعة إلى القرن الرابع قبل الهجرة.. ويذكر «ابن سيده» أن هذه الصناعة ظلت تحتفظ بشهرتها وتقدمها فى عهد الراشدين والأمويين في دمشق[٩٢])... ورغم فقر العالم الاسلامى النسبى ـ آنذاك ـ في الحديد، فقد نشطت عمليات استخراجه من رسوبات سطحية متفاوتة فى تأكسدها ولكنها كانت سهلة الاستغلال... ويضع جغرافيو المسلمين خريطة توزيعية لمكامن الحديد فى لبنان وافريقيا الشمالية والأندلس خصوصا في «قسطنطينية الحديد» التى تقع إلى الغرب من «قرطبة» على حافة سلسلة سروات قورينا» ... كما كان العالم الاسلامى يستورد خامات الحديد من الغرب الهمجى (يعنى أوروبا)[٩٣]... وكذلك من الهند حيث اشتهر الفولاذ الهندى باسم (الهندواني» أو الهندى، ومنه كلمة «آلند» الاسبانية «وهى تعنى مرآة من فولاذ مصقول»...

وتحدث (اخوان الصفا) عن «الانسان» كأهم مقومات استخدام الأرض فى الانتاج المعدنى.... وقالوا عن هذه المقومات أنها «الصانع ـ المادة الخام (الهيولي) ـ المكان ـ الزمان ـ الحركة ـ الأداة ـ الآلة»...[٩٤]... وذكر «ابن خلدون» دور «الانسان» فى ترشيد الصناعة وربط بين جهد الإنسان فى المجال الصناعى فى استكمال «العمران الحضرى» لملامح تطوره... وذكر أنه اذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها (الاعمال) ووفت بالضرورى وزاد عليه، صرف الزائد حينئذ الى الكماليات من المعاش، وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع[٩٥]...

ومما يذكر أن دور (الانسان) في استخدام الأرض في مجالات الثروة المعدنية لم يكن قاصرا على استخراج الحديد وصناعته... وانما تعدى ذلك إلى النحاس والقصدير حيث كان العالم الاسلامي يتمتع بوفرة خاماتها... وذكر جغرافيو المسلمين وجود النحاس بوفرة في آسيا الوسطى، وفي أعالى بلاد مابين النهرين، وخاصة مناجم «أرغانة» وفي جنوب المغرب الأقصى والاندلس .

كما نشط (الانسان) في العالم الاسلامي في استخراج أوكسيد الزنك (أو التوتيا) خصوصا من (أرمينيا) وبلاد شمال إفريقية... و (يعلل) الجغرافيون ازدهار صناعة النحاس والبرونز والخارصين في العالم الاسلامى بوفرة المواد الخام وتقدم الوسائل التعدينية لديهم وقد أحسن المسلمون الاستفادة من ثرواتهم المعدنية، والطبيعة المختلفة، واتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها، ويذكر الجغرافيون المسلمون أن النحاس الأصفر كانت خاماته الغنية متوفرة في (أصفهان) و(بخارى) ... ويذكرون أن نحاس بخارى كان يستعمل فى طلاء أعلى المنائر... وكانت أجزاء الدولة الاسلامية في تكامل اقتصادى كبير فى مجال تعدين الذهب والفضة فكان المشرق يهيئ الفضة والمغرب يأتي بالذهب وكانت معادن التبر[٩٦] فى شرق النيل بين «اسوان» «وعيذاب» في مصر ، حيث كانت ترقد تكويناته في «العلاقى» على مسيرة خمس عشرة مرحلة من «اسوان»... كما كانت الفضة متوفرة في السودان... ويروى أن أكبر معدن للفضة كان في الشرق بمدينة «بنجهير» حيث كان العمال يتتبعون عروقا يجدونها تدلهم على الجوهر، وكان جعل المدينة وسوقها كالغربال من كثرة الحضر[٩٧]...

وكان السكان يستخرجون «البورق» من بحيرة (وان) شرقى تركيا، وكان يحمل من بحيرة (أرمية) الى العراق والشام ومصر، وكان «الشب» أهم ما يستخرج حول بحيرة (شاد) بالسودان[٩٨]... وقال «ياقوت الحموى» فى معجمه: إن جبال الفضة المحيطة بمدينة «بنجهير» بنواحى «بلخ» كانت (السبب) فى النشاط التعدينى بالاقليم..

ويذكر ابن حوقل أن الملح الذى يستخرج من مناجم الصحراء كان بكميات وفيرة لدرجة أن آلاف الجمال والحمالين كانوا يشتغلون باستخراجه كما كان الملح الذى يستخلص من المحيط الأطلسى يحمل إلى أعماق السودان، ويذكر أيضا ان ملح النوشادر، وهو من أهم الاملاح الكيماوية في ذلك الحين ، كان يوجد فى نقطتين متقابلتين على أطراف الدولة الاسلامية خصوصا في «صقلية» وبلاد ما وراء النهر[٩٩]... ويذكر الادريسي «ان الزئبق كان أكبر وأعظم المعادن وفرة في الدولة الاسلامية المغربية (الاندلس) وكانت تكويناته تتركز في صخور قريبة من «قرطبة»... ويقول... «وبشمال قرطبة الحصن الذى به معدن الزئبق، ومنه يتجهز بالزئبق ، والزنجفر الى جميع أقطار الأرض...[١٠٠]

ويذكر «الثعالبى» في (لطائف المعارف)، أن الفيروزج الأزرق كان يستخرج من «نيسابور» وفي عام ١٢٣٦ هـ زار «فريزر» (Fraser) التل الذى يقع على مسافة ستين كيلو مترا إلى شمال غربى هذه المدينة، وكان (السكان) يستعملون الفؤوس في استخراجه من الحفر ويستطيع المرء أن يلاحظ أن العمل في هذا المجال كان واسع النطاق في الزمن الماضي[١٠١]

وعلى ذلك يمكن القول : إن دور (الانسان) في (استخدام الارض) عند الجغرافيين المسلمين في مجال الثروة المعدنية لم يكن يقل عن دوره في المجال الزراعى والثروة الحيوانية وقد لمسنا أن كتب التراث قد سجلت ذلك واكدته... وابرزت ما اشتهر به كل قطر اسلامى من صناعة معينة، بل وقاموا (بتفسير وتعليل) تركز صناعة تعدينية مافى اقليم بعينه، واهتموا بالخريطة التوزيعية لخامات المعادن وجهد الانسان في سبيل استخراجه وتطوير الصناعات القائمة عليه...

* **فضل العلماء المسلمين، وأثرهم في اثراء الفكر الجغرافى العالمي الحديث فى مجال الجغرافية البشرية..**

لا أحد ينكر أن العرب والمسلمين قد أسهموا فى تقدم العلوم الجغرافية بنصيب عظيم الأثر في نهضة أوربا الحديثة يشهد على ذلك رصيدهم الضخم من المؤلفات الجغرافية ، وما ورد فيها من معلومات لم تكن معروفة قبل ظهور الاسلام.

وتفسير شموخ العطاء الاسلامي فى مجال الجغرافيا أن الفكر الجغرافي عند المسلمين قام على أساس ايمانهم بالاسلام ونفورهم من التعصب الدينى ، واحترامهم لكل الاديان الأخرى... وقد اعترف بذلك كثير من النصارى واليهود... فقال البطريريك «عيشويابة» الذى تولى منصبه عام ٦٤٧ ـ ٦٥٧هـ: «إن المسلمين الذين مكنهم الله من حكم العالم ليسوا اعداء للنصرانية إنهم يوقرون قديسينا وقسيسينا، ويحترمون أماكن عبادتنا..».

لقد سلم جغرافيو الاسلام تراثهم العظيم لأوروبا مشتملا على (التوازن) بين الروح والفكر والمادة، فلم تكن أحدها تغلب على الأخرى.. بل أخذ الغرب تراثهم وهو فى ثوب التكامل بين الجوانب الثلاثة... وقد مدح المفكر الغربى «ديوى» هذا الاتجاه عند المسلمين بقوله... «إن العقل لا يصبح ذا دلالة الا عندما ينصب عمله على المواقف العملية فى الحياة..»

وفي الوقت الذى كان خلفاء المسلمين يشجعون فيه حرية الفكر فى دولة الاسلام كانت أوربا فى ظلام دامس كان رجال الكنيسة وقتئذ يحاكمون العلم والعلماء ، ويضطهدون كل صاحب رأى جديد حتى أنهم حكموا على العالم «جاليليو» بالموت عندما نادى بأفكاره في كروية الأرض ودورانها[١٠٢]... ومن ثم يمكن القول: إن الفكر الجغرافى عند المسلمين زمن أمجاد الحضارة الاسلامية وازدهارها كان عبارة عن (بوتقة) جغرافية و(ظرف) زمنى فسيح... و(موعد) بطولى خارق مع الابداع والعطاء...

وحين أخذت الأزمات تداهم العالم الاسلامى ابتداء من النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وحين تعرضت دولة الاسلام الكبرى للاضطرابات والغزوات الهمجية وما تبع ذلك من انحطاط العمران وانقطاع التيارات الاقتصادية .. تحولت مراكز الاستيطان البشرى الكبرى فى حواضر العالم الاسلامى إلى أطلال حضارة زائلة ... وانتقلت معظم أصول التراث الجغرافي الاسلامي عبر (محاور) الاتصال إلى أوربا..

... وعلى دعائم الفكر الجغرافي عند المسلمين نهضت مدارس الجغرافيا فى أوربا. ويلمس الباحث بوضوح مقدار تأثر مفكرى الغرب في المجال الجغرافى البشري بمناهج الفكر الاسلامي.. ففى مجلدى كتاب (الجغرافية البشرية) Anthropogeographie يعتبر عماد الجغرافية عند الالمان) والذى نشر سنة ١٢٩٨ ـ ١٣٠٧هـ ضمن مجموعة الكتب، الجغرافية المشهورة التى أصدرها انجلهورن «Engelhorn» وشتوتجارت «Stuttgart» في هذين المجلدين درس «راتزل» حياة البشر في مجالات نشاطهم المختلفة وفي مجتمعاتهم المختلفة دراسة منظمة قائمة على (علاقة الانسان بالبيئة الجغرافية)[١٠٣]... ولم يكن ذلك الا مجرد اعادة صياغة لما حاوله المسلمون الذين درسوا العلاقة بين الانسان والبيئة... من أمثال (ابن حوقل) الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى وكان من أوائل (الحتميين) بحق فقد نجح في الربط بين المناخ وغيره من الظاهرات الجغرافية وبين النشاط البشرى..... ويكفى أن نترك العلامة جوستاف لوبون ليبين دور المسلمين في اثراء الفكر الجغرافى الاوربى والعالمي بقوله... «ويكفى أن نشير مع ذلك إلى ما حققه العرب في الجغرافية لاثبات قيمتهم العالية . فالعرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الاماكن تعيينا مضبوطا في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التى كان يشك الاوربيون فى وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التى جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونا كثيرة[١٠٤]...

وفي خضم الثورة العلمية فى أوربا ... وحين برز السؤال التقليدى القديم من جديد يلح علماء أوربا على الاجابة عن هذا السؤال: ما مركز الانسان فى هذا الكيان الطبيعى؟

وهل (الارض) قد خلقت لتكون (مسرحا) له... أم (هو) جزء كبقية الاجزاء المكونة للكيان؟...

حين ألح هذا السؤال مرة أخرى على علماء أوربا نجدهم يعودون (بالمنهج الجغرافى) الى (وصف سطح الأرض) التي هى مسرح حياة الانسان ووجوده... وهكذا انكبوا على مؤلفات ابن حوقل والاصطخرى والمقدسى المسعودى. ويكفى أن نقول: إن المستشرق «باربييه دومنيار» Barbier de Menard ترجم كتاب المسعودى «مروج الذهب» الى الفرنسية وطبع في باريس بين سنتى ١٢٧٦ هـ ـ ١٢٨٢ هـ. في تسع مجلدات، كما نقله الى الانجليزية الاستاذ سبرنجر Springer، وطبع الجزء الأول منه في لندن سنة ١٢٥٦ هـ، والطبعة الانجليزية غير كاملة...

واذا كان الجغرافى الالماني كاتيرر «Gatterer» في كتابه: (اطار عام لوصف الأرض) «Abriss der Erdbeschreibung» سنة ١١٨٩ هـ وقد حاول تقسيم العالم إلى أقاليم جغرافية متجانسة على أساس التضاريس وتبع ذلك سير كثير من العلماء الالمان على منهجه مثل هومير «Hommeyer» وزونه «Zeune» وبخر «Bucher» ... فان أسس هذا التقسيم كانت قد انتقلت إلى أوربا مع مؤلفات «المقدسى» الذى كان ـ قبل ذلك بمئات السنين ـ قد اتخذ شكل التضاريس أساسا للتقسيم الثانوى للأقاليم كما فعل فى دراسته لبلاد الشام إذ قسمها إلى أربعة أقاليم:

(١) ساحل البحر المتوسط الذى تتكون أرضه من رمال ناعمة...
(٢) إقليم الجبال التى تكسوها الاشجار وتنتشر فيها القرى والمزارع...
(٣) إقليم الأغوار ...
(٤) إقليم الهضبة الشرقية المتاخمة للصحراء.

والمنهج نفسه كان الاصطخرى قد سار عليه وكذلك فعل «ابن حوقل» واليعقوبى... وابن خرداذبة... والكندى»[١٠٥] واخذ علماء الغرب من أمثال «كاتيرر» و«هوميير» و«زونة» و«بخر» عن العرب الربط بين الانسان والارض) رغم أن زونه zeuneلم

يهتم كثيرا بذلك، ولكنهم في الواقع لم يحاولوا التمييز بين (الدراسات البشرية) وبين الظاهرات الطبيعية واعتبروا الاثنتين متداخلتين ويمكن القول ـ والحالة هذه ـ ان الفكر الجغرافي فى القرن الثانى عشر الهجرى كان قد انجرف في اوربا مع طغيان العامل الطبيعى في التعليل والتفسير الجغرافي رغم وضوح العامل البشرى في ذلك المجال عند علماء المسلمين قبلهم بأكثر من سبعمائة سنة ... (وجاء همبولت (Alexander Von Humboldt » في أواسط القرن الثالث عشر هـ . لينهج نهج علماء المسلمين نفسه ويؤكد على مركز (الانسان) فى الظواهر الجغرافية للأرض حسب اختلافات ظروف (البيئة) الطبيعية التى يعيش فيها وأنماط توزيع الأجناس البشرية على سطح الأرض ...

وفي الوقت الذى رأينا فيه وضوح العلاقة بين الانسان والارض عند علماء المسلمين نجد تخبط «راتزل» في كتابه «الجغرافية السياسية» عن الارض والمجتمع والدولة سنة ١٣١٤هـ فقد ترك قارئ «الحولية» غير الجغرافي يكوّن فكرة خاطئة عن (الجغرافية البشرية) ورغم أن «دركايم» قد نشر صدفة في العدد نفسه تقريرا عن كتاب (الجغرافية البشرية) متضمنا بعض الاعتراضات فان ما كتبه «دركايم» كان إلى حد كبير متأثرا بما ورد فى مقدمة «ابن خلدون».

وإذا كان «لوسيان ديفيفر» متأثرا بأستاذه «فيدال دى لا بلاش» ويرى بأنه لا توجد (جماعة بشرية) أو مجتمع إنساني دون أساس أرضي ويعتبر أن ذلك المفهوم هو نقطة البدء في الجغرافية فقد سبق «المقدسى» ما جاء به «لوسيان ديفيفر» بمئات السنين...[١٠٦].

وقد لمسنا كيف كان منهج علماء المسلمين في الربط بين الانسان والبيئة (متوازنا) ومعتدلا فأين... أليزيه ركلو «Elisee Reclus من توازن نظرتهم... وهو الذى تتلمذ على يد «كارل ريتر» وأظهر اهتماما بالغا بالجانب (الطبيعى) فقط فى هذه العلاقة واهمالا للجانب (البشرى) حسب ماورد في كتابه: (الأرض La Terre) الأمر الذى جعل آخرين مثل «فروبل» (Frobel) يشتطون في الاهتمام بالجانب البشرى واهمال آثر البيئة كلية... مما أدى إلى ظهور فكرة الازدواجية ـ «Dualistic Concept وهي الفصل بين الدراسة الطبيعية والبشرية..

وفي نهاية القرن الثالث عشر الهجرى عاد علماء الغرب إلى الأخذ بالمنهج الجغرافي عند المقدسي وابن حوقل والاصطخرى وابن خرداذبـه وابن خلدون. وبذلك رد الاعتبار إلى (العنصر البشرى) في الدراسة الجغرافية، وكان من أوائل من حملوا لواء هذه الدعوة الفليسوف الالماني (فريد رتش راتزل: «F. ratzel») وتلميذته الجغرافية الامريكية (ألن تشرشل سمبل: «E. C. Semple») حيث ذكرت في كتابها: «Anthropo - Geography: ان الارض وضعت للانسان المشكلات ولكنها في الوقت نفسه همست في أذنه بمعالم حلولها «... ثم تتابعت الدراسات والكتابات التى تسير على المنهج نفسه، فتجد الاستاذ : هنتجتن... «Huntington» يؤكد على أهمية المناخ في حياة «السكان» ... ومما هو جدير بالذكر أن «ابن خلدون» كان قد ذكر ذلك في (المقدمة الثالثة) التى ترجمت إلى اللغات الاوربية وقال بذلك أيضا ابن حوقل في كتاب «المسالك والممالك»... والذى ترجم أيضا الى اللغات الاوربية

وفي انجلترا قاد «روكسبى» P. Roxby و «فلير» Fleure منهجية منقولة عن جغرافيى المسلمين «المقدسى - الاصطخرى - ابن حوقل - ابن خلدون - المقدسى-ابن خرداذبَه - الادريسى »... فقد نشر «روكسى» سنة ١٣٤٨ هـ مقالات فى مجلة Scot. Geog. Magazine تحت عنوان : «The Scope and aims of human Geog» .

وبين فيها ما قاله علماء المسلمين أنفسهم من مئات السنين من أن التأثير المتبادل بين الانسان والبيئة هو محور الدراسة البشرية التى يجب أن تتجه إليها الدراسة الجغرافية حتى يظهر بوضوح التأثير المتبادل بين الانسان والأرض - أما «فلير» فهو أحد عمالقة الجغرافية البشرية فى انجلترا، ومن أشهر مؤلفاته «دهاليز الزمن» The Corridors of time ومقال عن الأقاليم البشرية «Human Regions» ان الأرض) بها أقاليم موسمية تجازى فيها (الانسان) مقابل مجهوده بوفرة في الرزق وتنوع فى المحاصيل الزراعية ... وواضح جدا مقدار اعتماد هذا المفهوم على ماذكره (المقدسى) من أثر الجهد البشرى فى زيادة غلة الفدان بدمشق والقيروان على سبيل المثال ...[١٠٧] .

ويكفى المسلمين فخرا أن الجغرافيين المحدثين في أوربا يحاولون استيعاب ما سبق أن وصل إليه (ابن خلدون والمقدسى وابن حوقل) من أن (الانسان) ليس سلبيا تحت المؤثرات الجغرافية وأن العوامل الجغرافية ليست إطارات ثابتة ذات حدود معينة ـ تطوى بداخلها (أجناس) خاصة تأوى إليها وتعيش فيها، لأن الأرض والتربة عوامل مساعدة فى إقامة الأجناس البشرية واختلاطها ـ إذ أن العلاقات بين البيئة والانسان لا تظهرها الا أنماط استخدام الارض... ومن هؤلاء الذين تأثروا بمنهج الجغرافيين المسلمين بوفون «Buffon» الذى اعتبر الانسان عاملا هاما في استخدام الأرض خاصة بعد أن عرف الزراعة واستأنس الحيوان...[١٠٨]. وتبدو منهجية (المقريزى) واضحة جدا في أشهر المراجع التى عالجت الانسان واستخدام الارض وهو موسوعة ركلو «E. Reclus» (١٢٤٥ هـ ـ ١٣٢٠ هـ) الفرنسية، والاتجاه نفسه تجده عند شيلر «N. Shaler» في الولايات المتحدة[١٠٩]...

... تلك كانت قبسات من الامجاد التى عاش فيها المسلمون الأوائل في المجال الجغرافي، عندما اتجهوا إلى العلم استجابة لله... ومن هنا لا يعتقد المرء أن التاريخ عرف أمة من الأمم الغابرة سارت سيرة المسلمين في طلب العلم والاخلاص في تحصيله وجعله عبادة لله يتعبد بها العلماء والمتعلمون... فكما جعل الاسلام (الارض) كلها (للمسلم) مسجدا وطهورا، فقد جعل الأرض كلها دار تعلم وتعليم وتأمل في آيات الله في الآفاق.... ويكفى أن القرآن الكريم دستور الإسلام قد رسم للمسلمين منهجية العلاقة بين الانسان والارض في قوله تعالى...

«هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ» سورة الملك / ١٥..

الخلاصـــة

* مما سبق بحثه ، يمكننا تلخيص الجوانب التالية فى وجود التفسير والتعليل الجغرافي بمناهج علماء المسلمين:ـ

١ ـ أن محاولات الانسان فى العصور البدائية في تفسير وتعليل الظواهر الجغرافية كانت مغلفة بالاساطير والسطحية، وأنه كلما ارتقى في سلم التحضر كان يعدل من مفاهيمه عن البيئة التى يعيش فيها بمقدار ما كان يتفاعل به مع معطيات الأرض على اعتبار أنها جزء من الكون الكبير..

٢ ـ تقدمت محاولات الانسان خطوة لابأس بها في تفسير وتعليل الظواهر الجغرافية وتحديد علاقة الانسان بالارض حين دخل الانسان مرحلة الحضارات القديمة، ودخلت المفاهيم الجغرافية منذ القرن الثانى قبل الميلاد مرحلة (الوصف) الدقيق والمترابط لأجزاء سطح الأرض وبدأ ثقل الاهتمام ينتقل عند الإنسان من الظواهر الارضية وشكل الأرض وأبعادها وعلاقتها الفلكية بالكون إلى (الناحية الوصفية) سواء كان ذلك بمقياس المناطق الكبرى المترابطة مع غيرها Chorographic أو بمقياس الأجزاء الصغرى التفصيلية Topographic وطغت المفاهيم المتعلقة (بالمكان) على الجوانب الأخرى من الفكر الجغرافي (عند المصريين - والبابليين - والعرب والأعريق وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة .

٣ ـ في ظل الاسلام ارتبطت كثير من المفاهيم الجغرافية المتعلقة بالانسان وعلاقته بالأرض بشعائر الاسلام، ومنهجه القائم على حرية الفكر والمشاهدة والتجربة والقياس وظهر (دور الانسان) لأول مرة كعامل مهم في تنظيم العلاقات البيئية فوق الارض عند علماء المسلمين، وانجبت الأمة الاسلامية عمالقة الفكر الجغرافى من أمثال ابن حوقل ـ والمقدسى ـ وابن خلدون ـ والبيرونـي ـ والمسعودى ـ والمقدسى ـ والادريسى، والبكرى وابن خرداذبة...

٤ ـ وضع علماء المسلمين للبشرية جمعاء (منهج التفسير والتعليل الجغرافي) في جميع مجالات البحث الجغرافى عامة، والعلاقة بين الانسان والارض بصفة خاصة، وبذلك خرج الفكر الجغرافي (لأول مرة) من مجرد (الطابع الوصفى) الى التحليل وتفسير الظواهر و(الربط) بين الانسان والعوامل الجغرافية الأخرى فوق سطح الأرض.

٥ ـ وضع علماء المسلمين لأول مرة أسس التفسير والتعليل الجغرافي لاستخدام الانسان للأرض في كل جوانبه ومنها الجانب الزراعي والعمراني والتعدينى، وفسروا أسباب تركز الاستيطان البشرى فى اقاليم لكل منها طابعه الخاص.

٦ ـ لم تقم النهضة الأوربية الحديثة عامة وأساليب الفكر الجغرافى خاصة الا بفضل جهود علماء المسلمين التى انتقلت مع مؤلفاتهم إلى أوربا عن طريق محاور الاتصال البرية والبحرية ووسائل الاحتكاك الحضارى بين دولة الاسلام المترامية الاطراف وجنوب أوربا.

٧ ـ ما زالت أبحاث الجغرافيين المسلمين المراجع الاصلية التى ينهل منها علماء الغرب حتى يومنا هذا . ومن كل ذلك نستنتج أن الاسلام كان وسيظل دستوراً وشريعة وحياة ومبعث رقى للانسان ووسيلة استقرار وتقدم للجنس البشرى ليتمكن من تنفيذ مهمة الخلافة فى الارض التى أرادها له الله سبحانه وتعالى ...

الهوامش والمصادر والمراجع

١ ـ حسن طه النجم ـ دراسة في الفكر الجغرافي ـ عالم الفكر ـ المجلد الثاني ـ العدد الثاني وكذلك يمكن الرجوع إلى:

- Griffith Taylor (edit.), Geography in the Twentieth century. Chapter 2.

وكذلك يمكن الرجوع الى :

- T. W. Freeman, A Hundred Years of Geography, P . 12.

- R . Hartshorne, the Nature of Geography, P. 35.: وكذلك

٢ ـ يكفى أن نذكر هنا ما ورد في كتاب سيرجيمس فريزر «Sir James Frazer» عن «الغصن الذهبى...» «The golden Bough» الذى يعتبر دائرة معارف كاملة في الاساطير البدائية والقديمة..

٣ ـ لوسيان فيفر ـ الارض والتطور البشرى ـ ترجمة د. محمد السيد غلاب ـ ص ٢٩٩

٤ ـ فرانشيسكو دى كاسترى ـ اليونسكو ـ العدد ٢٢٨ ـ ص ٢٠.. وهو عالم إحياء ايطالى مدير قسم علوم البيئة باليونسكو كان قبل أن ينضم إلى اليونسكو في عام (١٩٧١) نائب رئيس «اللجنة العلمية لمشاكل البيئة» بالمجلس الدولي لمعهد علم البيئة بفاد يلفيا (شيلى) كتب عدد كبيرا من المقالات في مجال الانسان والارض.

٥ ـ يمكن الرجوع في ذلك إلي :

Evans - Pritchard, E.E. : Nuer Religion, O.U.P. 1956;

Lienhardt, G., Divinity and Experience. The Religion of Dinda, O.U.P . 1961.

٦ ـ بوجلييه ـ نظام الطوائف ـ جزء (١٧) ـ ص ١٨٥ : ص ١٩٣.

٧ ـ دايتاخ ـ الخرافات والأديان ـ جزء (٢) ـ المقدمة.

٨ ـ لعل ذلك يحدث في العصر الحديث أيضا في بعض المناطق ومنها (الكونغو)...

٩ ـ لوسيان فيفر: - Rev. Synt. Historique, 1908, PP. 230 - 270.

١٠ ـ د. يسرى الجوهرى ـ الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ـ منشأة المعارف بالاسكندرية

١١ ـ انظر في ذلك: Strachan, J., "Creation" in Encyclopacdia of Religion and Ethics (Jamas Hostings, ed), Edinburgh 1954 vol IV.

١٢ ـ أحمد أبوزيد ـ نظرة البدائيين الى الكون ـ عالم الفكر ـ المجلد الاول ـ العدد الثالث ص ٤٥، وكذلك يمكن الرجوع الى: Jevons, F. B., 1896 "Introduction to the History of Religion, London, PP. 3 - 15.

١٣ ـ د. صلاح الدين الشامي ـ الاسلام والفكر الجغرافي العربى ـ منشأة المعارف بالاسكندرية.

١٤ ـ د. يسرى الجوهرى ـ الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤...

وكذلك: - Ackerman, E., 1958:

Geography as Fundamental Research Disciplines, chicago, PP. 13 - 70.

١٥ ـ د. يسرى الجوهـرى ـ المرجـع نفسـه ... وكذلك:: - Childe, G. A., 1962:

Prehiotorians intetpertation of diffusion in

Readings in Culture Geography, Edit., by Wagner, N. Y., P. 212.

١٦ ـ د. جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية ـ المكان ـ العدد ١٩٦ ـ الهلال ـ ص ١٣.

١٧ ـ يرجع فى ذلك إلى Childe G., Social Evolution, London, P. 139.

كانت كوش القديمة تحمل ما يسمى حاليا ببلاد النوبة شمال السودان والمحصورة بين الجندل الثانى والرابع على ضفاف النيل وقد ازدهرت امبراطورية كوش فى النصف الأول من القرن العشرين ق . م، واشتهرت بزراعة العنب.

وكذلك : د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧.

وكذلك Howkes L and Wally L., 1963: Prehistory; and the

Begining of Civilization, London, P. 395.

١٨ ـ كانت بلاد (يام) Yam القديمة تقع في مناطق كردفان ودارفور...

١٩ ـ Childe G., 1951: What Happoned in history, A., Penguin Book, PP. 140 - 141.

٢٠ ـ أحمد نجم الدين فليجة ـ الجغرافية العملية والخرائط ـ الاسكنـدرية ـ ص ٧: ص ٢١.

٢١ ـ Dickinson and Hawarth, the making of geography. P.?.

٢٢ ـ د. شريف محمد شريف ـ قطور الفكر الجغرافي ـ الانجلو ـ ص ٩٢.

٢٣ ـ يرجع في ذلك الى: Dickinson, Op. Cit., PP. 3 - 12

٢٤ ـ اغناطيوس كراتشكوفسكى ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربـي ـ الجـزء الاول ـ ص ١٩: ص ٥٦.

٢٥ ـ د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق ـ ص ٤٢.

٢٦ ـ يرجع في ذلك الى: Dickinson, Op. Cit., pp. 2 - 13

Dickinson, Ibid.

٢٨ ـ د. محمد محمود محمدين ـ كيف يستفاد من الشعر الجاهلي في دراسة جغرافية الجزيرة العربية ـ مجلة الدارة ـ الرياض ـ ص ٢١٥.

٢٩ ـ د. عبدالرزاق نوفل ـ المسلمون والعلم الحديث ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة ـ ص ٣٧.

٣٠ ـ د. صلاح الدين الشامى ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦

٣١ - المرجع السابق - ص ٧٦ [ابن خرداذبه فارسى الأصل بغدادى النشأة توفى حوالى (٣٠٠ للهجرة) وقد تولى ادارة البريد فى منطقة الجبال، ووضع كتاب المسالك والممالك فى اواسط القرن الثالث الهجرى بتكليف من الخليفة المعتمد] .

٣٢ ـ د. عبدالعزيز كامل ـ الارض والانسان عند الجغرافيين المسلمين ـ المؤتمر الجغرافى الاسلامى.

٣٣ ـ د. محمد محمود محمدين ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨.

٣٤ ـ د. عبدالعزيز كامل ـ المرجع السابق ـ ص ٩.
وانظر كذلك : المقدسى ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ تحقيق دى غويه . ط ـ بريل ـ لندن . (١٩٠٦).

٣٥ ـ المقدسى ـ المرجع السابق ـ ص ١ ـ ٢
والمقدسى ... «ابوعبدالله بن أحمد بن أبى بكر البناء»... ولد ببيت المقدس، ومن هنا جاءت نسبته «المقدسى» ويقدر المؤرخون سنة ولادته بعام ٣٣٥ هـ (تقريبا) في أول خلافة المطيع ببغداد. أثناء ولاية كافور الاخشيدى على مصر والشام ، وفى السنة التى طرد فيها سيف الدولة من دمشق، ويمكن الرجوع فى ذلك الى : أمراء دمشق للصفدى - تحقيق د . صلاح الدين المنجد - ص ٢٠٨ .

٣٦ ـ المرجع نفسه . ص ٢.

٣٧ ـ المرجع نفسه . ص ٣، ص ٤

٣٨ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ بدون تاريخ ـ ص ٤١.
... وابن خلدون كاتب من القرن الرابع عشر الميلادى الذى أرتبط صيته بمقدمته... واسمه ولي الدين أبوزيد عبدالرحمن بن خلدون ـ ولد في تونس عام ١٣٢٢م. وتوفى عام ١٤٠٦م ونلفت النظر إلى أن الآراء الجغرافية لابن خلدون ـ يجب استجلاؤها لا على الرحلة وانما من مؤلفه التاريخي الضخم.
«كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر».

٣٩ـ ابن رسته ـ الأعلاق النفيسة ـ الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية تحقيق دى غويه ليدن ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م.

٤٠ ـ ابواسحق ابراهيم محمد الفارسى الاصطخرى ـ المسالك والممالك ـ القاهرة ١٣٨١ هـ ـ تحقيق محمد جابر الحسينى ـ ص ٦١ ـ ص ٦٥.

٤١ لمسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) مروج الذهب ومعادن الجوهر.القاهرة الجزء الثاني ـ ص ١٧.

٤٢ ـ المرجع نفسه ـ ص ٣: ص ١٥.

٤٣ ـ ولد أبوالريحان محمد بن أحمد «البيروني» في ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ، الموافق للرابع من سبتمبر سنة ٩٧٣ ميلادية في احدى ضواحي عاصمة الدولة الخوارزمية ، وهى مدينة «كان» التى توجد مكانها حاليا بلدة صغيرة تابعة لجمهورية ازبكستان بالاتحاد السوفيتى.

انظر في ذلك : د. محمد الفندى، د. أمام ابراهيم أحمد ـ البيرونى ـ أعلام العرب ـ ٧٧ ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ص ١٩٦٨ ص ٢٤.

٤٤ ـ المرجع نفسه ـ ص ٣٥

٤٥ ـ عبدالعال عبدالمنعم الشامي ـ جغرافية المدن عند العرب ـ عالم الفكر ـ (ابريل ـ يونيه) سنة ١٩٧٨م.

ص . ص ١٢٣ ـ ١٦٨.

٤٦ ـ المرجع نفسه . ويمكن الرجوع الى : د. محمد محمود محمدين ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧٤.

٤٧ ـ د. محمد محمود الصياد ـ منهج العلماء المسلمين في البحث الجغرافي ـ المؤتمر الجغرافي الاسلامي الاول ـ الرياض ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م. ص ١١.

٤٨ ـ ابن حوقل (ابوالقاسم بن حوقل النصيبى) ـ كتاب صورة الارض ـ ليدن ـ سنة ١٩٣٨، طبعة . بيروت سنة ١٩٦٢م.

٤٩ ـ تقى الدين المقريزى ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ طبعة بولاق ـ سنة ١٢٩٤ هـ. ص ٨: ١١

٥٠ ـ د. محمد محمود الصياد ـ المرجع السابق ـ ص ١٢

٥١ ـ مقدمة ابن خلدون، ص ٥١٢، ص ٥١٣.

٥٢ ـ حسن طه النجم ـ المرجع السابق ـ ص ١١٠، ص ١١١.

٥٣ ـ محمد العقيلى ـ جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط ـ المؤتمر الجغرافى الاسلامى الاول بالرياض ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م. ص ٧.

٥٤ ـ المرجع نفسه...

٥٥ ـ د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق ـ ص ١٢.

٥٦ ـ حسن طه النجم ـ المرجع السابق ـ ص ١١٢.

٥٧ ـ المرجع نفسه ـ ص ١١٤ ... ويمكن الرجوع في ذلك أيضا إلى مادة "Geography"
فى الانسكلوبيديا البريطانية...
٥٨ ـ د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق ص ١٣.
٥٩ ـ د. محمد السيد غلاب ـ البيئة والمجتمع ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٣. ص ٤١ ـ ص ٤٩.
٦٠ ـ د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق ـ ص ١٤.
٦١ ـ د. صلاح الدين الشامي ـ المرجع السابق ـ ص ١١٨ ـ ١١٩.
٦٢ ـ انظر : المسعودى ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ المرجع السابق ص ٣٧٢.
٦٣ ـ انظر مقدمة ابن خلدون ـ المرجع السابق ـ ص ٨٢...
٦٤ ـ راجع رأى الدكتور حزين فى كتابه عن ابن خلدون في مقال منشوار بعنوان:
Some Arab Contibutions to Geography, Geography, 1932.
٦٥ ـ حسن طه النجم ـ المرجع السابق ـ ص ٤١٨.
٦٦ ـ د. محمد محمود الصياد ـ المرجع السابق ـ ص ٩.
٦٧ ـ المرجع نفسه. ص ١٠.
٦٨ ـ جواد على تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جزء ٧ بيروت، ص ٢٦.
٦٩ ـ د. صلاح الدين المنجد ـ المرجع السابق ص ٣٨.
٧٠ ـ المرجع نفسه . ص ٣١.
٧١ ـ د. محمد محمود محمدين ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٩.
٧٢ ـ المرجع نفسه . ص ٣٢١.
٧٣ ـ القزوينى ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ـ سنة ١٩٦٠م. ص. ص
(٢٣٨ ـ ٢٣٩).
٧٤ ـ د. عبدالله يوسف الغنيم ـ جغرافية مصر من «كتاب المهالك والمسالك».
لابى عبيد البكرى ـ المؤتمر الجغرافي الاول ـ الرياض ١٣٩٩/١٩٧٩م
٧٥ ـ المرجع نفسه ـ ص ٧٩. ويذكر الدكتور الغنيم في تحقيقه لكتاب البكرى أن
«السوانى» جمع سانية وهى الناقة التى يستقى عليها.
٧٦ ـ تقع اردبيل بين تبريز وبحر الخزر.
انظر في ذلك: د. محمد محمود محمدين. المرجع السابق ص ٣١٩.

٧٧ ـ آدم ميتز ـ الحضارة الاسلامية ـ المجلد الثاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت
وكذلك د. محمد محمود محمدين ـ المرجع السابق.
٧٨ ـ د. محمد محمود محمدين ـ المرجع السابق ص ٣٣٤.
٧٩ ـ موريس لومبارد.. الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامى ـ ترجمة الدكتور
عبدالرحمن حميدة ـ دار الفكر ـ ص ١١٢.
٨٠ ـ المرجع نفسه . ص ١١٣.
٨١ ـ المرجع نفسه ص ١١٢: ص ١١٨.
٨٢ ـ ياقوت الحموى-معجم البلدان-جزء٢- بيروت-سنة١٩٥٥م ص٢٣٠:ص ٢٣٧.
وكذلك : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبى ـ البلدان ـ طبعة دى غوية ـ
ليدن ـ سنة ٣٤٩٠ ص ٣٦٢.
٨٣ ـ د. عصام الدين عبدالرؤف ـ الحواضر الاسلامية الكبرى ـ دار الفكر العربى ـ
سنة ١٩٧٦. ص ١٣١، ١٣٢.
ـ كذلك حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسى ـ ج ٢ ص ٣٠٧.
٨٤ ـ سيد أمير على ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي . ص ٣٦٤.
٨٥ ـ المقدسى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٦.
٨٦ ـ ياقوت ـ المرجع السابق ـ ص ٨١ ـ ص ٨٦.
٨٧ ـ المقدسى ـ المرجع نفسه . ص ١١٦. ويحكى ابن خرداذبة (ص ١٥)
ان الحجاج منع من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة... وكان من الاشياء التى
أحصاها. المقدسى بفلسطين لبن الجاموس... (انظر ص ١٨١ من كتاب المقدسى).
٨٨ ـ البكرى ـ المغرب ـ طبعة سلين ـ ص ٥.
٨٩ ـ الاصطخرى ـ (توفي في النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) ـ أبو اسحق
ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى، المعروف بالكوفي «المسالك والممالك» تحقيق
د. محمد جابر عبدالعال ـ القاهرة ـ ١٩٦١. ص ٢٨٠.
٩٠ ـ دكتور عز الدين فراج ـ فضل علماء المسلمين على الحضارة الاوربية ـ دار الفكر
العربى ـ ١٩٧٨ ـ ص ١١٩ ـ ص ١٢٣
(أ) أخرجه البخارى ـ باب فضل الزرع والغرس ج٣ : ص ٦٦

(ب) أخرجه الامام احمد بن حنبل في مسنده ـ ٥: ص ٤١٥.

٩١ ـ د. محمد محمود الصياد ـ المرجع السابق ـ ص ٤٠.

٩٢ ـ ابن سيدة ـ (ت ٤٥٨ هـ ، ١٠٦٦م) أبوالحسن على بن اسماعيل الاندلسى كتاب المخصص ـ الجزء الأول ـ بولاق سنة ١٣٢١ هـ . ص ٢٦.

٩٣ ـ موريس لومبارد ـ المرجع السابق ص ٢٣٠: ص ٢٣٢.

٩٤ ـ اخوان الصفا وخلان الوفا ـ رسائل اخوان الصفا ـ دار صادر بيروت ـ ص ٢٧٨ ـ ص ٢٩٢.

٩٥ ـ مقدمة ابن خلدون ـ المصدر السابق ـ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

٩٦ ـ أبوزيد شلبى ـ تاريخ الحضارة الاسلامية . ص ٣٠٤ ـ «التبر ، بالكسر: الذهب والفضة أو فقاتهما قبل أن يصاغا... نقلا عن (القاموس).

٩٧ ـ آدم ميتز ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٦ .

٩٨ ـ الادريسى ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ طبعة دوزى ـ ص ٤٠.

٩٩ ـ يقول «ناصر خسرو» (ص ٥ من النص الفارسى) أن بقمة جبل «دماوند» بئرا يخرج منها النوشادر والكبريت، ويصعد على الجبل رجال يحملون البقر، فيملؤنها بالنوشادر، ثم يدحرجونها من قمة الجبل.

،،ظ ـ الادريس ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٢، ص ٢١٣.

١٠١ ـ آدم ميتز ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢٦ نقلا عن :

Fraser, 1852: Journey into Khorasan, P. 407 Lodon. .

١٠٢ ـ يرجع في ذلك إلى: ظهور الاسلام للدكتور أحمد أمين ، وكذلك / تاريخ التمدن الحديث للاستاذ جرجى زيدان/ ـ وكذلك حضارة العرب لجستاف لوبون، وكذلك التاريخ الاسلامى للدكتور ابراهيم العدوى، وكذلك: الدكتور عز الدين فراج. المرجع السابق ـ ص ٩ ، ص ١٠.

١٠٣ ـ لوسيان دفيفر ـ المرجع السابق ـ ص ٦٣ ـ ص ٦٥.

١٠٤ ـ أبوزيد شلبى ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦٨.

وكذلك : آدم ميتز ـ المرجع السابق ـ ص ١: ص ١٢....

١٠٥ ـ حسن طه النجم ـ المرجع السابق ـ ص ١١٨

١٠٦ - لوسيان ديفيفر - المرجع السابق - ص ٨ - ص ١٧

١٠٧ ـ د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق ـ ص ١٢: ص ٢٨.

١٠٨ ـ Buffon, Count de, A., : Natural History, trans. by W. Smellie,. -
Vol. I. PP. 34 - 39.

١٠٩ ـ د. عبدالفتاح وهيبة ـ جغرافية الانسان ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٢٢...

THE MAN-LAND RELATION AS CONCEIVED BY MUSLIM GEOLOGISTS THROUGH INTERPRETATION AND EXPLANATION

BY

ABDEL ALIM A. KHADR PH. D. HEAD OF GEOGRAPHY DEPT.,
FACULTY OF ARABIC AND SOCIAL SCIENCES, QASSEEM
IMAM MOHAMED IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY

With the expansion of the Islamic State, the road was open before Muslim Geologists for studying the topology of places, examining their elements and their relatiön to human effort in the exploitation of land. Muslim geologists had extraordinary personal abilities in the field of experimentation, travelling, observation, documentation as well as writing. It's no wonder that they originated the method of (geographic interpretation and explanation) and applied it in all the geographic fields in which they excelled. Therefore their geographic research methods had taken giant steps while geographic thought in the pre-Islamic era was characterised by superficiality and immaturity besides being solely dependent on description in handling geographic phenomena.

Islam had, no doubt, the credit for emancipating the human mind from the shackles of fear and narrow-mindedness. That encouraged Muslims towards creativity. The universities of Al Azhr, Cordova and Baghdad had witnessed an all-out renaissance in Muslim geographic research methods.

The method of interpretation and explanation of Muslim geographists does not claim being without precedents; it rather respects previous steps taken by ancient civilisations. It profited by ancient Egyptian, Babylonian and Greek geographic concepts though such concepts were confined to a purely descriptive approach and had not yet reached the level of the interpretive, explanatory and analytic pattern applied by Muslim geographists.

In ancient geographic concepts, the role of the human factor in the delineation of natural and civilisational topography was obscure and it was Islam which clarified that role because it regards man as the Caliph on earth by the Order and Will of Allah. In many verses of the Holy Koran that role is determined: " He it is who hath made earth subservient unto you walk in the paths there of and eat of his providence. And unto Him will be the resurrection. "

(Sorat Al Moulk /15)

So , Muslim geogrphists were faithful in carrying the message as well as in enriching human thought in the field of geography in general and in human geography in particular. Prominent among them are geniuses like 'Al Maqdesi' who had laid, for the world, the foundations of 'geographic interpretation and explanation' in determining the man-land relation which was, then, the highest human achievement in the field of geographic research.

When the Islamic World was beset by crises at the beginning of the sixth century A.H. and was fading out, most of the Islamic geographic heritage had found its way to European libraries. From that inexhaustible source, European geographists drew the bases of their renaissance in the field of geographic research. Therefore, (Ratzel) had not found the least difficulty in his ecological study of human life and activity and he found available to him, in all European languages, the works of Muslim geographists who had laid the bases for human geographists who originated the method of interpretation and explanation on the relation of man and his environment.

Western Geographists like 'Peter Apian', Sbastian Monster', 'Gerared Cramer', 'Viranious', 'Humbolt', 'Riter', 'Fredrich Ratzel', 'Fidale du La blache', 'Lucian Fifer', 'Weldrege' and others followed the steps of Muslim geographists.

In conclusion, the traces of Islamic civilisation in general and Islamic methods of geographic thought in particular are still found in every line of the old

Islamic manuscripts kept in the libraries of Berlin, Vienna, London, Paris, Washington and Moscow reminding humanity of the fact that there had been a civilisation which exalted the World of Allah and provided humanity with vital elements of progress, welfare, and civilisation.

And May Allah guide our steps.

